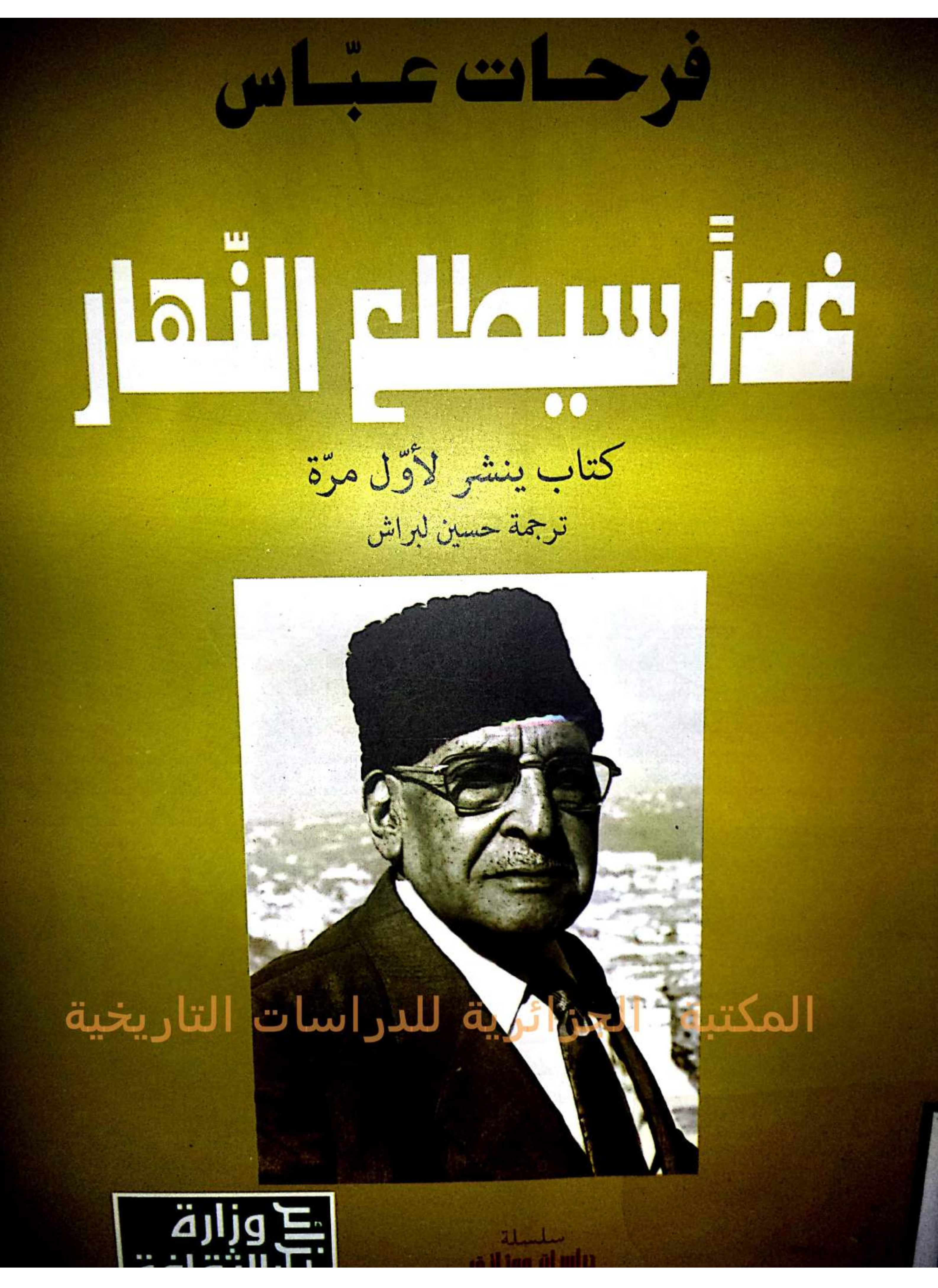
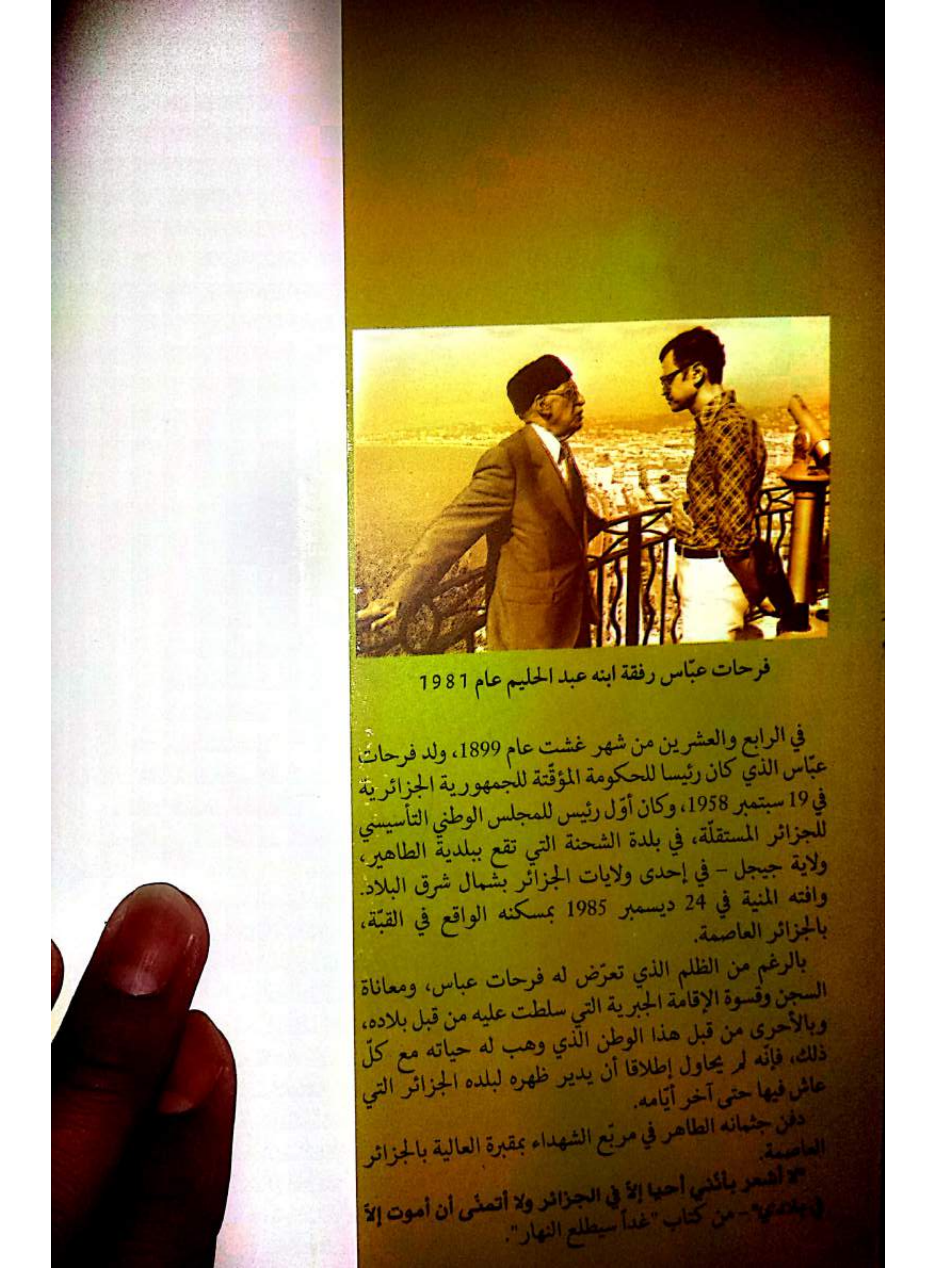

فرحات عبّاس
غداً سيطلع النّهار
كتاب ينشر لأوّل مرّة
ترجمة حسين لبراش
وزارة
سلسلة



فرحات عبّاس رفقة ابنه عبد الحليم عام 1981

في الرابع والعشرين من شهر غشت عام 1899، ولد فرحات عبّاس الذي كان رئيسا للحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية في 19 سبتمبر 1958، وكان أوّل رئيس للمجلس الوطني التأسيسي للجزائر المستقلّة، في بلدة الشحنة التي تقع ببلدية الطاهير، ولاية جيجل – في إحدى ولايات الجزائر بشمال شرق البلاد. وافته المنية في 24 ديسمبر 1985 بمسكنه الواقع في القبّة، بالجزائر العاصمة.

بالرغم من الظلم الذي تعرّض له فرحات عباس، ومعاناة السجن وقسوة الإقامة الجبرية التي سلطت عليه من قبل بلاده، وبالأحرى من قبل هذا الوطن الذي وهب له حياته مع كلّ ذلك، فإنّه لم يحاول إطلاقا أن يدير ظهره لبلده الجزائر التي عاش فيها حتى آخر أيامه.

دفن جثمانه الطاهر في مربّع الشهداء بمقبرة العالية بالجزائر العاصمة.

"لا أشعر بأنني أحيا إلاّ في الجزائر ولا أتمنّى أن أموت إلاّ في بلادي" – من كتاب "غداً سيطلع النهار".

فرحات عبّاس

غداً سيطلع النهار

كتاب ينشر لأوّل مرّة

ترجمة حسين لبراش







الهاتف: 60 62 67 073 0 - الفاكس: 09 51 32 021
البريد الإلكتروني: editions_gal@yahoo.fr
www.alger-livres-editions.com

تنبيه

كتب والدي العزيز - رحمه الله - فرحات عباس هذا الكتاب - «غدا سيطلع النهار Demain se lèvera le jour» - وهو تحت الإقامة الجبرية، في عهد نظام هواري بومدين ونقحه خلال السنوات الأخيرة من حياته. أعلن والدي كتابة هذا الكتاب منذ 1981 في الطبعة الجديدة لكتابه «الشاب الجزائري - Le Jeune Algérien». غير أن المرض قد حال دون نشره في الموعد المنشود. كان يلح، وهو يوكل إلي مخطوط هذا الكتاب، بشكل خاص، على نشر هذا الكتاب عندما يتم تأسيس نظام ديمقراطي حقيقي في الجزائر وعندما تأخذ كلمة «الحرية» كل معانيها. وهو ما كان يمثل في نظره أهم من كل شيء... بل كل شيء.

حان الوقت إذن للوفاء بهذا الوعد.

كان يريد أن يعبر في هذا الكتاب عن رؤيته الخاصة لمستقبل بلاده بالنظر إلى التزامه الذي عقده على نفسه والخبرة التي اكتسبها طوال كفاحه السياسي الذي خاضه ضد كل مظاهر الظلم، وكذلك خلال الفترة الاستعمارية وخلال هيمنة الحكم الفردي بعد استقلال البلاد.

رغم تقدمه في السن، وشدة مرضه، فقد كانت الأفكار التي بلورها على امتداد هذه الصفحات تشكل في حد ذاتها الأدلة القاطعة على صفاء تفكيره وجلاء بصيرته الثاقبة التي ما فتئت الأحداث المأساوية التي عصفت ببلادنا بضع سنوات بعد رحيله أن حكمت لصالحها.

لم يفقد الأمل على الإطلاق في أن يرى الشعب الجزائري يعيش في يوم من الأيام في بلد تسوده الحرية والديمقراطية و يتمتع فيه الجميع بنفس الحقوق والواجبات.

كان والدي، المعروف بتمسّكه القوي بعقيدة أسلافنا، جمهوريا ومجددا، كما هو معروف، كان يتمتع بإنسانية استمدّها من جوهر قيم الإسلام وقيم الحضارة الغربية الحسنة في نفس الوقت.

لقد كان رجل حوار، ذا تواضع كتواضع أولئك الذين يخشون الله والذين يحترمون سنن الحياة، وقد عرف كيف يحتفظ حتي النهاية بحماس المناضل الأوّل الذي لم يفارقه أبدا وهو يدين بالقوّة نفسها كل مظاهر التعسّف والظلم والتسلّط والمصير الجائر الذي فرض على شعبه وبلاده.

لقد جعلته بصيرته والحسّ الحادّ المعهود لديه يتوجّس حتّى آخر أيام حياته من وقوع أحداث خطيرة ومأساة جديدة لبلاده. كما كان شديد الحرص على أن تتغذى الأجيال الجديدة إزاء وطنها بالحس الوطني الحقيقي بعيدا عن كل ديماغوجية وأن تتحلّى بحبّ العمل وروح المسؤولية وأن تؤمن بفضائل التعليم والمعارف العلمية والانفتاح على العالم. إذ كان دائما ما يذكر بفضائل التسامح والحريّة والمسؤولية.

تلك هي الرسالة التي أراد والدي العزيز –رحمه الله– أن يوجّهها، كآخر وصيّة له ونداء نهائي إلى رجال ونساء بلده الذين ليس لديهم أيّ طموح سوى طموحهم إلى بناء بلد متصالح مع نفسه.

لقد سمحت الأكاديمية الجامعية الجزائرية، السيدة ليلى بن منصور، بفضل مقالاتها العديدة عبر الصحافة الوطنية وكتابها الذي نشرته عن فرحات عباس بعنوان «فرحات عباس.. ذلك الرجل المظلوم Ferhat– Abbas L'injustice»، للشباب الجزائري بالتعرّف بشكل أفضل على الكفاح الوطني لوالدي وأفكاره. ويأتي كتابها الموثّق هذا، فضلا عن التزامها بهذه القضية النبيلة، ليرشّحها، بكل جدارة واستحقاق، لتقديم هذا الكتاب الذي ننشره اليوم بعد رحيل صاحبه.

عبد الحليم عبّاس



مقدّمة

عندما طلب منّي عبد الحليم عبّاس، ابن الفقيد فرحات عبّاس، التقديم لهذا الكتاب الذي ألّفه هذا الرجل السياسي الجزائري الفذّ قبل موته، ولم ينشر إلاّ اليوم بعد رحيله عنّا، تملّكني في أوّل الأمر شعور بالدهشة بأن يترك هذا الرجل العظيم وراءه مخطوطا نفيسا لا يقدّر بثمن. وقد استبدّ بي هذا الإحساس فجأة حتّى خلت وكأنّه لا يزال بيننا ولم يفارقنا أبدا.

ثمّ تملّكني انفعال شديد وأنا أتخيّل هذا الرجل الذي لا أكنّ له إلا احتراما وإعجابا واعترافا بما خاضه من كفاح بإخلاص طوال قرابة نصف قرن من الزمن حتى يحيى وطنه حياة الحرية، وهو يكتب آخر الجمل، بل آخر الكلمات .. وهو الذي احترف الكتابة كل حياته حتىّ أصبحت تشكل لديه جوهر حياته.

الكتابة، ثمّ الكتابة حتى النهاية.. وحتى آخر ساعة.. عن الجزائر، بلاده وعن هذا الشعب الجزائري الأبيّ .. وعن شعبه الذي جعل منه أعلى مثله.. الكتابة، ثمّ الكتابة حتى انفصلت حياته من هذا الجسد الذي عانى الأمرّين في سبيل القضية الوطنية منذ سنوات دراسته الجامعية حتى ساعة وفاته في 24 ديسمبر 1985.

بعد ذلك، حلّ فضول مشروع محلّ الانفعال لمعرفة محتوى المخطوطة الثمينة. بطبيعة الحال، لم أتمالك نفسي أمام رغبتي في انتزاع بعض الكلمات منها من محدّثي الكتوم الذي احتفظ طوال 25 عاما بهذا الكنز الثمين الذي أوكله إليه والده المغفور له موصيا إياه بنشره في بلاده متى عادت حرية التعبير إليه.

عندما طلب منّي عبد الحليم عباس كتابة مقدّمة هذا الكتاب لفرحات عباس، أدركت بأنه قد منحني بذلك شرفا عظيما، وثقيلا للغاية. .. وكنت

أتساءل إن كان هذا الكتاب يتطلّب في النهاية تمهيدا لأنّ أي كتاب من كتب فرحات عباس لا يحتاج إلى أيّ تقديم.

عندئذ تساءلت، وأنا أتعهّد بكتابة هذا التمهيد، هل سأكون في مستوى هذه المهمّة. إذ كيف يمكن لي أن أقرن قلمي بقلم من عرف بفصاحة لغته الفرنسية التي أثارت إعجاب الفرنسيين أنفسهم وحتى الأحسن دراية بهذا المجال.

هو من كانت مقالاته الصحافية وغيرها من الرسائل والخطب والتقارير والبيانات والكتابات الأخرى في ميادين وألوان شتى التي وجّهها إلى كبار هذا العالم، تتعدّى بعمق أفكارها مجرّد السيطرة على المسائل المطروحة والرؤية الثاقبة الحديثة وكلّ ما كان يمكن التفكير فيه أو كتابته في عهده. إذ أصبحت هذه الكتابات أكثر من أيّ وقت مضى في صلب أحداث الساعة. ولم يكن يصفه الجميع بصاحب الرؤية الثاقبة سدى.. ولم يكن اسمه رديفا للمعرفة إلى يومنا هذا فحسب، بل أصبح أيضا معروفا ومعترفا به حتى ما وراء الحدود الجزائرية.

هذا القلم الذي تفتّق منذ 1919 بينما كان فرحات عباس لا يزال طالبا في الصيدلة ولا يكاد عمره يبلغ عشرين سنة عندما اكتشف الظلم الذي عاشه شعبه والذي أخذ على نفس التنديد به ومحاربته، لا يمكننا إلاّ أن ندهش ونتساءل بكل إعجاب ونحن نكتشف بأنّ هذا الشاب الجزائري الذي لم يكد يبلغ عشر سنوات من الدراسة الابتدائية قد أصبح قلما متميّزا يكتب تحت الاسم المستعار لكمال ابن سراج في أشهر صحف عصره، مثل «الإقدام» للأمير خالد و «همزة الوصل – Le Trait d'Union» لفكتور سبيلمان Victor Spielmann أو «التقدّم» للدكتور بن تامي. هذا أمر خارق للعادة بحيث أخرس الاحتلال الذي كان يعرف بأنه كان يجب من الآن فصاعدا أن يحسب ألف حساب لهذا الشاب الجزائري الاستثنائي و«العنيد».

إنّه شاب استثنائي فعلا كان رئيسا لجمعية طلاب شمال أفريقيا. وكان يرتدي طاقية استراخان[1] كرمز لهويته الإسلامية وكإشارة إلى من كان يكنّ له دائما وأبدا كل الإعجاب، كمال أتاتورك الذي شيّد تركيا المعاصرة العظمى،

---

1. استراخان: فرو الحملان الصغيرة أو نسيج يشبهه.

لأن عينا هذا الطالب الفتي كانتا تشخصان نحو هذا البلد الكبير الذي كان يحلم أن يكون لشعبه نفس مصير هذا البلد: الديمقراطية.

إنه نفس الطالب الذي استقرّ كصيدلي في مدينة سطيف عام 1933، والذي ترتّب من بين أحسن عناصر دفعته.. إنه نفس هذا الطالب اليافع الذي نشر هذا الكتاب الشهير «الشاب الجزائري «Le Jeune Algérien» عام 1931 ليندّد فيه بتعسّف إدارة الاحتلال ويدافع به عن شعبه بكل جوارحه. إنه أيضا نفس هذا الطالب الفتي الذي قرّر الخوض في السياسة من أجل الدفاع بشكل أفضل عن قومه. ففي هذه المدينة التي تبنّته منذ سنوات شبابه الأولى، مدينة سطيف التي تقع بالشرق الجزائري انتخبه الشعب ليمثله لدى الإدارة الاستعمارية. بحيث انتخب على التوالي مستشارا بلديا ومستشارا عاما ومندوبا للمجلس الجزائري. وتجاوزت هالته حدود الشرق الجزائري لتمتد إلى كامل التراب الوطني وحتى إلى «البلد الأم»، فرنسا التي ذاع فيها اسمه.

فيما بعد، تقرّب من اتحادية منتخبي ناحية قسنطينة بقيادة الدكتور بن جلول ليصبح القلم الشهير لأسبوعيته «الوئام الفرنسي الإسلامي (L'Entente franco-musulmane» (1935 - 1942 التي كانت مقالات فرحات عباس وافتتاحياته تحدث فيها دويا صاخبا كدوي المدافع ضد الظلم. لكنّه كان يدافع دفاع الإنساني المسالم، عن المساواة في الحقوق لأنه كان يريد تجنّب الخلط بين الطبقة الدنيا من الأقدام السوداء وطبقة المستوطنين العريضة. وساند مشروع «بلوم فيوليت Blum-Violette الذي كان يجب أن يسمح بتمثيل منتخبي الأهالي في البرلمان الفرنسي. غير أن رؤساء بلديات الجزائر قاموا بإفشال مشروع الأمل وتم وأده نهائيا في 1938.

سنة 1938 تاريخ حاسم في مسار فرحات عباس السياسي الذي أسس أوّل حزب سياسي له تحت اسم «الوحدة الشعبية الجزائرية L'Union (Populaire Algérienne (UPA) من جهة، والأهمّ من ذلك، أنه وقّع قطيعته مع النخبة السياسية الفرنسية للجزائر من جهة أخرى. ومنذ الآن، أخذ الرجل يبحث عن وسيلة لتحرير شعبه من نير الاحتلال. وبعبارة أخرى، لاستقلال بلاده بكل بساطة. لقد مات المثل الأعلى للمساواة تماما في ذهن فرحات عباس مع وأد مشروع «فيوليت». لكن كان على الرجل السياسي أن يداري نخبة الأهالي التي كانت لا تزال متمسكة بهذا المثل الأعلى بحيث

كانت تستبدّ به شخصيا مسألة أخرى على قدر كبير من الأهمية: كيف السبيل إلى هذا الاستقلال دون إراقة الدماء؟ حاول في البداية أن يتفادى ذلك، وشن حملة حقيقية من محاولات مختلفة لدى الحكام السياسيين الفرنسيين المتعاقبين. لكن استطاع الاحتلال الذي كان ينشط في عاصمة البلد الأمّ أن يجهض كل هذه المحاولات.

وفي 1941، أرسل طعنه الأخير في شكل تقرير بما يشبه انذار قبل سفك الدماء إلى المارشال «بيتان» (Pétain) الذي كان يحكم آنذاك فرنسا، بينما كانت هذه الأخيرة ترزح تحت الاحتلال الألماني. لم يكن هذا التقرير عبارة عن حصيلة سياسية واقتصادية وإجتماعية للجزائر التي كانت حينها تحت الاحتلال الفرنسي الذي كان يشكل فيه الأهالي أفقر الطبقات وأحقرها، وإنّما كان عبارة عن برنامج سياسي واقتصادي واجتماعي لجزائر الغد التي قد لا يكون فيها أيّ مظهر للظلم والجور أيضا. ونظرا إلى جودته الرفيعة، كان يمكن أن يعتمد كأرضية لعمل طلاب جامعاتنا اليوم لكونه كان تقريرا طلائعيا.

غير أنّ هذا التقرير ظلّ للأسف بلا جواب. لكن لا بأس. فهذا الرجل السياسي الداهية غني بالأفكار السخية. عندئذ برزت فكرة البيان الذي حرّره شخصيا وأشهره في 1943 والذي سوف يجمع من حوله كل اتجاهات الأهالي السياسية، العلماء وحتى مصالي الحاج. لأنه كان يروّج لفكرة الاستقلال من خلال الاستقلال الذاتي بلا إراقة للدماء. وهو ما أثار إغراءات كبيرة تجاوزت كل الآمال. ومع البيان، نال فرحات عباس الذي تجلّى كرجل سياسي من الحجم الكبير، ألقاب النبالة. لكنه مقابل نجاحه في تحقيق هذه المآثر أمضى ثلاثة أشهر في السجن في الجنوب الجزائري. وسوف يؤدّي البيان إلى ميلاد رابطة أحباب البيان والحرية AML عام 1944. وقد أصبحت هذه الرابطة، حسب أقوال الرئيس عبد العزيز بوتفليقة نفسه، بطاقة هوية وطنية حقيقية. وبداخلها، ورد هذا المقال «إني اتّهم أوروبا» الذي وضع أوروبا أمام مسؤولياتها إزاء هذا الاحتلال الذي ولّد اللاعدل والظلم.

خلال هذه السنة نفسها، وبالذات في 1944، أسّس فرحات عباس صحيفته الخاصة «المساواة – Egalité» التي سوف تتخذ في 1948 اسم «الجمهورية الجزائرية – La République algérienne» التي سوف تكون

في مرحلة أولى لسان حال «البيان» وفي مرحلة ثانية لسان حال حزب «الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري UDMA الذي أسّسه فرحات عباس في 1946 والتي يمكن أن نعتبرها كأكبر صحيفة أهلية بحكم نوعية مضمونها وترقيم صفحاتها وتعميرها (عمّرت بالتحديد 11 سنة و 03 أشهر). وفيما عدا قلم فرحات عباس، فقد كانت الأقلام التي كانت تكتب فيها، كمحمد العزيز قسوس وأحمد بومنجل (رئيسا تحرير تباعا)، على سبيل المثال لا الحصر، من الأقلام الشهيرة. ولهذا السبب، كانت هذه الصحيفة تضاهي الصحافة الاستعمارية، بل كان يمكنها أن تصنّف من بين أكبر عناوين الصحافة الدولية. إذا كان مضمونها يعالج من باب الأولوية المسألة الجزائرية، فإنه كان يهتمّ مع ذلك بكل الهزات التي كانت تهزّ العالم. وقد كانت مسألة تحرّر المرأة محورية فيها. والدليل على ذلك أنه كان لهذا الرجل العظيم الشجاعة على فتح النقاش حول هذه المسألة الشائكة التي كانت تشغل باله كثيرا منذ عام 1938: عتق المرأة من الرقّ مع الشروع في فتح أبواب المدرسة أمام الفتيات. وهو ما كان يمثّل آنذاك رهانا كبيرا. لكن المسألة السياسية كانت تخطو إلى الأمام وقد كانت الافتتاحيات اللاذعة التي كان يكتبها فرحات عباس ضد الاحتلال والتي غالبا ما كانت تتعرّض لمقصّ الرقابة تؤدّي به إلى المثول أمام المحاكم، كما حكم عليه بالسجن في 1952.

إن أحداث 8 مايو 1945 الأليمة والآلاف من الموتى في صفوف الأهالي هي التي أشعلت فكرة المساواة. فلم يكن بإمكان فرحات عباس الذي كان يؤخر أجل حمّام الدم أن يتعافى من رؤية شعبه وهو يموت في يوم الاحتفال بنهاية الحرب العالمية والحرب ضد النازية. ولم يزد وطنيته التي كانت تشتعل في نفسه منذ سنواته الدراسية الأولى إلا توهجا وكما زاد من إصرار الرجل على حتمية الكفاح المسلح. وسوف يتعرّض فرحات عباس شخصيا زيادة على ذلك، وهو يتهم من قبل الإدارة الاستعمارية ظلما بإثارة هذه الأحداث، لتعسّف السجن لمدة أحد عشر شهرا ووضعه تحت الرقابة الأمنية تمهيدا لإعدامه. غير أنه قد ثبت بأنّ يديه لم تكونا ملطختين بالدم.

بعدما أطلق سراحه، أصبح أكثر إصرارا من أي وقت مضى على مقارعة الاحتلال. كما قيل من ذي قبل، أسّس حزبه في 1946، تحت اسم «الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري- UDMA الذي أصبح حزبا وطنيا

بفضل العدد الهائل للمنخرطين به وأصبح حضور «الجمهورية الديمقراطية الاجتماعية» حضورا فعليا في مواثيق الحزب.

عند نهاية الحرب العالمية الثانية، أصبح من حق منتخبي الأهالي الالتحاق بالبرلمان الفرنسي. انتخب فرحات عباس مندوبا ويمكنه الآن أن يرافع هناك، في فرنسا، كما كان دائما يتمنى ويطالب بذلك، لصالح قضية شعبه. لكنه لن يكون لوحده هناك لأنّ كل منتخبي الأحزاب الوطنية الأهلية، كالاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري وحركة انتصار الحريات الديمقراطية – MTLD وحتى الأحرار قد أصبح لهم تمثيل داخل البرلمان الفرنسي. لكن فات الأوان كثيرا وأصبحت الحركة الوطنية في حالة غليان كبير لأن الانتظار كان طويلا للغاية ولم يتمّ أبدا الوفاء بالوعود.

وجّه فرحات عباس، في سنة 1948 التي تعتبر ثاني مرحلة حاسمة في مساره السياسي، نداءا إلى الشعب الجزائري يعدّ إعلان حرب حقيقية على فرنسا. « سوف يتم تأسيس الجمهورية الجزائرية في إطار الاستقلال الذاتي أو بفضل الكفاح المسلّح. وسوف يتم تأسيسها بأي حال من الأحوال لأن الدولة الجزائرية هي «وصفة المستقبل» كما تعوّد أن يقول في صحفه وعلى امتداد أعمدته الصحافية.

وكما قال بنفسه، لم يكن أوّل نوفمبر مفاجأة بالنسبة إليه طالما أنه كان مهيأ لاحتمال خوض الكفاح المسلّح في حال رفضت فرنسا الاستقلال الذاتي. حلّ حزبه بلا ندم، ثمّ انخرط في جبهة التحرير الوطني والتحق بها دون تردّد. في مؤتمر الصومام، أي في 20 أوت 1956، عيّن في المجلس الوطني للثورة الجزائرية – CNRA. في 1957، كان عضوا في لجنة التنسيق والتنفيذ CEE. وفي تلك الحقبة نفسها، طاف كل أنحاء العالم ليشرح دوافع حرب الجزائر. وفي سنة 1958 التي تعدّ ثالث مرحلة حاسمة في مساره السياسي،انتخب فرحات عباس بالإجماع من قبل رجال نوفمبر رئيسا للحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية. واحتفظ به المجلس الوطني للثورة الجزائرية في هذا المنصب حتى شهر أوت 1961. وعند استقلال البلاد في 1962، حمله زملاؤه إلى رئاسة المجلس الوطني التأسيسي.. فما أمجده مسار مثل هذا المسار السياسي الذي خاضه هذا الرجل العظيم في خدمة وطنه بكل تفانٍ وبلا انقطاع من 1920 إلى 1962.

في 1963، استقال من رئاسة المجلس الوطني التأسيسي تعبيرا عن رفضه التزكية انتهاك الديمقراطية. وبالفعل، فقد صودر الاستقلال تباعا من قبل رئيسي الجزائر المستقلة الأولين اللذين أقاما الحزب الواحد، ومن ثم الديكتاتورية؛ ولم يكن ذلك إلا ليثير ثورة فرحات عباس الديمقراطي الذي وهب حياته حتى يعيش شعبه في كنف الحرية والكرامة في بلاده.

لقد كلفه هذا الاحتجاج المشروع السجن في الجنوب الجزائري والإقامة الجبرية في عهد حكم الرجلين المذكورين سلفا، ومصادرة جواز سفره وأملاكه الخاصة. واستطاع خلال الفترة الوجيزة الفاصلة بين ولايتي القمع والاضطهاد أن يحقق في 1966 أغلى أمنية لديه،الحج إلى مكة المكرمة. وهو الذي كتب في 1935 في صحيفة «الوفاق – L'Entente» يقول: «الإسلام في قلبي كمسجد من الصوان ...».

وإذ سلبت حريته طوال عشرين سنة تقريبا، فإنه استعاد حيوية الكتابة وأخذ يكتب من جديد. كانت هذه الكتابة، كما قيل أعلاه ،جوهر حياته، بل كل حياته. بعدما منح شعبه «الشاب الجزائري – Le Jeune Algérien» في 1931 و«ليل الاستعمار – La nuit coloniale» في 1962، نشر في نهاية حياته تقريبا ثلاثة مؤلفات كان لها نجاح باهر، هي على التوالي (تشريح حرب 1980) (L'autopsie d'une guerre)، «الشاب الجزائري Le Jeune Algérien» (طبعة جديدة 1981) و (الاستقلال المصادر 1984) (L'indépendance confisquée).

عند وفاة هواري بومدين إثر مرض عضال عام 1978، تم رفع الإقامة الجبرية عنه واستعاد بذلك فرحات عباس حريته. وكان آنذاك في الثمانين من عمره.

في 30 أكتوبر 1984، قلده الرئيس الجزائري، الشاذلي بن جديد، وسام المقاومة. وسام لم يكن له أي مبرر لأنه كان قد بلغ من العمر عتيا، أي بعد اثنين وعشرين سنة من استقلال البلاد وبعد عشرين سنة تقريبا من التعسف عاش فرحات عباس طوال هذه المدة مسلوب الحرية. إلا أن هذا الوسام قد جاء ليؤكد الظلم الذي لقيه هذا الرجل و ليعترف في الوقت نفسه بالخطأ الذي ارتكبه في حقه أحمد بن بلة وهواري بومدين.

لم يستمتع فرحات عباس بسعادة الحياة الحرة لوقت طويل. إذ رحل عن هذا العالم إثر مرضه الشديد جراء المحن الأليمة التي تعرض لها، يوم 24 ديسمبر 1985، وسط أقاربه بمنزله الواقع في القبة، بأعالي الجزائر العاصمة.

لكن هل كان بإمكان الرجل الشهير أن يغادر ويرحل عنا دون أن يترك لنا رسالة أخيرة؟ بالتأكيد لا. الدليل أمام أعيننا.

في هذا الكتاب الاستثنائي الذي نشر بعد وفاته وتركه لأجيال الغد، ذكر الرجل السياسي الجزائري مواطنيه بأن «الحاضر لا يستطيع أن يتجاهل المستقبل دون قصاص». وهو السبب الذي جعله يرى مع ذلك، وهو يؤكد بأنه لم يفكر إطلاقا في الحلول محل المؤرخين، بأنه يجب استحضار تاريخ الجزائر العربي البربري مع حملات الاحتلال المختلفة التي تعاقبت عليها حتى نهاية القرن العشرين الذي وضع خلاله الأهالي حدا للاستعمار الفرنسي. «إنها فترة تاريخية» كان يجب أن تفتح الجزائر على الديمقراطية. لكن للأسف لم يكن الأمر كذلك. فقد خان كل من بلة وبومدين بيان أول نوفمبر 1954 ومؤتمر الصومام.

«الحكم يعني التنبؤ». غير أن التعليم العلمي قد تم تجاهله بينما لا خلاص دونه.

يتوجّه هذا الكتاب الذي أطلق عليه اسم «المنهاج» والذي يريد أن يكون برنامجا سياسيا لجزائر الغد، كما قال، إلى ابنه وشباب الجيل الجديد، إلى شباب ما بعد الاستقلال وإلى رجال ونساء بلاده أملا في أن يأتي يوم ويعكف فيه مجلس وطني تأسيسي ينتخبه الشعب بكل حرية على دراسته وانتقاده، وربما الاحتفاظ ببعض الأشياء منه...».

يمكن أن نحتفظ من هذا البرنامج السياسي بالجوهر الذي يعني بناء الدولة الديمقراطية لجزائر جمهورية. ثم العلاقات الخارجية للبلاد ودبلوماسيتها مع دول الجوار والإيمان بالمغرب الكبير الموحّد وأفريقيا السوداء وأوروبا والفاتيكان والأمم المتحدة. والعالم العربي وبطبيعة الحال فلسطين التي سوف يكون لها المكانة الأفضل. أما المذهب الكاستري – نسبة إلى فيدال كاسترو – فقد تلاشى تماما، ولاسيما عندما نعرف بأن فيدال كاسرو قد أعلن شخصيا في بداية شهر سبتمبر هذا من عام 2010 إفلاس نظامه السياسي. إن المسألة الدينية التي لم يستطع فرحات عباس أن يتجاهلها لكونه

كان يعتقد دائما وأبدا اعتقاد المسلم المتدين الورع، كما آمن بذلك دائما ودافع عنه، بأن الأديان التوحيدية الثلاثة ينبغي لها أن تعمل معا لإحلال السلم عبر العالم.

كان يشجع شعبه، وهو المتفائل كما عهدناه دائما وأبدا، على «الإيمان بالماضي والأمل في المستقبل».

كان فرحات عباس وهو يعدّ هذا البرنامج الذي تعرض فيه لكل صغيرة وكبيرة، يعود باستمرار إلى مسألة التعليم الجوهرية والتي يرى من خلالها بأن «التجديد لن يتحقق وأن وجه الجزائر لن يتغير إلا إذا ركزت الأجيال الصاعدة جهودها على العلوم الدقيقة.»

لكن هذا الكتاب يريد، كبرنامج سياسي واقتصادي واجتماعي حقيقي للجزائر، أن يكون كذلك محاكمة للنظام البومديني الذي جرّد في رأي فرحات عباس، البلاد من شخصيتها وكان يريد لها أن تكون «على صورة الديمقراطيات الشعبية، ثقافة منسوخة أظهر الشعب الجزائري عداءه لها».

الضّرر الذي ألحق بالجزائر كبير. فهل سيكون بمقدور البلاد أن تتعافى في يوم من الأيام؟ كما كان يتساءل. كل شيء ممكن، ويكفي لنا أن نؤمن بذلك ونستعد للجدّ والعمل. فبغير العمل لا شيء يتحقق. إنه إذن تقديس للعمل من شخص معطاء كريم لم يسع إلى الأخذ إطلاقا.

إنّ هذا الكتاب الذي نشر بعد رحيل فرحات عباس يعدّ آخر رسالة لهذا الرجل الشهير إلى شعبه قبل رحلته الأخيرة والذي كان يريده خطاب وداع للجزائريين وأصدقائه من بلاد المغرب وفرنسا هو على العكس، كتاب جعله، أكثر حضورا في بلده وأكثر التحاما مع شعبه الذي يرى فيه المثل الأعلى. فلا بدّ لنا إذن أن نصغي لهذا الفكر من صاحب البصيرة الثاقبة وأن نتأمل فيه بكثير من العناية والتقدير ليس فقط من الجيل الحاضر، ولكن من كل الأجيال الصاعدة.

ليلى بن عمار بن منصور

مذكّرة عامة للناشر

لا ينبغي للقارئ أن ينسى بأنّ المرحوم فرحات عباس قد ألّف هذا الكتاب في الفترة التي قام خلالها هوّاري بومدين بوضعه تحت الإقامة الجبرية (1976-1979). لهذا، ينبغي لنا أن نقرأ ونفهم الملاحظات والأحكام التي أصدرها المؤلّف بشأن الأحداث والرجال والمؤسّسات في ضوء السياق الوطني والدولي التي ترتبط به. فغالبا ما كان فرحات عباس يرجع، من وقت إلى آخر، إلى معطيات التاريخ الآنية. وعلى سبيل المثال، عندما يثير جبهة التحرير الوطني لما بعد الحرب، فإنه ينبغي لنا أن نفهم من هنا الحزب-الحجّة، أيّ هذا الجهاز السياسي البيروقراطي للدولة ، كما كان يعمل منذ استقلال البلاد حتّى وفاة بومدين، وليس الحزب كما كان يجب أن يظهر بعد التحوّلات المتعدّدة التي تعرّض لها منذ اعتلاء الشاذلي بن جديد سدة الحكم وحتّى آخر أزماته واضطراباته.

ع.ر.

توطئة

«جلّ الناس عبيد لأنهم لا يعرفون نطق كلمة لا»

سيباستيان شامفور

مقطع من مقدمة ابن خلدون «...وأما إن كان من المتلبّسين بذلك في طلب الرئاسة فأجدر أن تعوّقه العوائق وتنقطع به المهالك...».

إنني في خريف حياتي. وهذا الكتاب هو آخر عمل من أعمال حياتي السياسية. إنه خطبة وداع للجزائر، لأصدقائي من بلاد المغرب ولأولئك الذين أحببتهم وخدمتهم طوال مسيرتي الطويلة. وكذلك رسالة وداع لأصدقائي الفرنسيين من فرنسا والجزائر، وبالخصوص لأولئك الذين عاشوا إلى جنبنا خلال حربنا التحريرية الفظيعة غالبا مع التضحية بحياتهم.

عشت نصف قرن من الزمن تحت النظام الاستعماري وتلقيت خلاله كل الضربات المضادة مثل أبناء بلدي الآخرين إن لم أقل أكثر منهم. أنا لا أنتمي إلى الفرسان العرب ولا إلى طبقة أعيان الطرقية ولا حتى إلى «البورجوازية».

في 1830، كانت قبيلة بني عمران التي أنتمي إليها تقيم على سهول جميلة تقع على مشارف مدينة جيجل. وهي أرض كانت تتقاسمها مع أبناء عمومتها من آل بني حسان. وكانت هذه السهول ذات مناخ معتدل تمتد حتّى وادي جن جن الذي يحدّ بلدية الطاهير.

كان بنو عمران يعيشون على الزراعة. وظلّوا كذلك حتّى أيامنا هذه. وأراضيهم الواقعة على سفوح غابة جميلة تصلح لتربية الماشية هي أراض صالحة لزراعة الحبوب وزراعة الأشجار المثمرة وأشجار الزيتون. لا تزال حتّى أيامنا هذه تزخر بالثمار الوفيرة.

ومنذ أن بدأ المستوطنون في الاستقرار بهذه الأراضي، تمّ تجريد بني عمران، كسائر القبائل المقيمة على الأراضي الخصبة وإفقارهم إلى حدّ البؤس. في 1871، تم تجريدهم أيضا من أملاكهم لأنهم تحالفوا مع الباشآغا، الشيخ المقراني، في انتفاضته ضد الاحتلال وتم ترحيلهم إلى «فجّ أمزالا» حيث أعاد الاحتلال تثبيتهم على أراضي حجرية تختلف كل الاختلاف عن أراضيهم السابقة.

في «دوارهم» الأصلي، قام الاحتلال بتأسيس مركزين له، هما سترازبرغ (Strasbourg) ودوكاسن (Duquesne) الآهلان بالأوربيين. لم يستقرّ بنو عمران في فجّ أمزالا. بل عادوا إلى ديّارهم ليؤجّروا سواعدهم رغبة منهم في البقاء.

في هذه الفترة، كان والدي في السادسة عشرة من عمره تقريبا. إذ قال لي في حكايته لي: «اشتغلت بأجر لا يزيد على فرنك واحد ونصف الفرنك في اليوم من خمسة عشرة ساعة. ومع أشقائي الذين كانوا يكبرونني في السنّ،كنا نتجمّع من حول والدنا العجوز وكنّا ننتظر حتى تمضي العاصفة وتأتي بأيّام أحسن.»

«قرع القدر باب منزلي عندما أرسل لي أحد كبار المستوطنين من رجال السياسة النافذين ابنه الأكبر، شارل دامبي دي فيجيي، وهو شاب يفي مثل عمري، ليعلن لي بأن والده يرغب في إشراكي في مؤسسته. بالنسبة لي ولأهلي، حياة جديدة بدأت. كنت أجوب الأسواق بحثا عن أحسن المواشي والخضر والفواكه الطازجة. لقد كانت تجارة مربحة للغاية بحيث سمحت لنا بتغيير ظروفنا الاجتماعية.»

«عن عمر كان يناهز خمسة وعشرين سنة،عيّنني دامبي وهو لا يزال دائما يشغل منصب مستشار عام للمنطقة،قائدا على بلدية ستراسبورغ. كان ذلك في الوقت الذي انطلقت بالذات عمليات إحصاء الأهالي وتسجيلهم في سجل الحالة المدنية.

«في الجزائر، أثارت هذه الحالة المدنية الكثير من الضحك الصاخب. وبالفعل، لم يكن آنذاك الجزائريون يرون في الأمر أيّ فائدة. كانوا يعرفون ويعيّنون ويسمّون بعضهم البعض. لكن على مستوى القبيلة فقط، ثمّ في إطار جماعة أقل حجما، وأخيرا على مستوى الأسرة. كان لكلّ واحدة منها

اسم يمنحها تسمية خاصة. كانت أسرتي على سبيل المثال تستجيب لاسم بن الضاوي (الضواوة في الجمع). عندما كان القياد يطلبون من رعاياهم اختيار اسم لهم، كان هؤلاء يردّون عليهم في غالب الأحيان بالسخرية والتهكم. لذلك، يمكننا أن نجد اليوم أسماء غريبة، مثل «دماغ العتروس - رأس التيس - شيب الدراع، بودراع (صاحب الذراع الطويلة)، الخ. غير أن هناك بعض العائلات التي تعرّضت لهذه المشكلة بكثير من الجدّية.»

كتبت في موضع آخر كيف تمّت العملية بالنسبة إلى أهلي. اقترح والدي على جدّي أن يتبنى لنا الاسم العائلي «الضاوي» أو «بن الضاوي»، لكن جدي رفض رفضا قاطعا وقال: عائلتي سوف تحمل اسم جدي عبّاس. لقد كان رجلا إنسانيا كبيرا، محسنا، تقيا وعدلا. هكذا، قتل أحد أبنائه في شجار. وتوعّد الأهل وقالوا: «سوف نثأر له».وقال الجدّ عباس ردّا عليهم: «لا نفعل شيئا. كان ذلك شجارا: الله وحده هو من يقول من كان على حق ومن كان على خطأ.» هكذا قضي الأمر وسمّي الجدّ باسم عبّاس أحمد.

كان لوالدي حسّ التضامن العشائري. هجر مستوطنان كان قد شدّهما الحنين إلى بلادهما قطعتيهما الأرضيتين ورجعا إلى فرنسا. تبلغ مساحة كل واحدة منهما عشرين هكتارا. أعان والدي شقيقته على شراء إحدى هاتين القطعتين. والثانية المعروفة باسم «أرض الرقيقات» اشتراها لنفسه وأقام بها إخوته. عاشوا فيها وما زلنا نرى أحفادهم وأبناء أحفادهم يعيشون عليها إلى يومنا هذا.

غداة الاستقلال، طلب منّي بعض أحفادي المباشرين وشقيقتان لي أن أبيع هذه الأرض. لكنّني رفضت وقلت عندئذ: «لا يصحّ أن يهدم ما أنجزه والدي وأنا على قيد الحياة».

وعلى غرار عائلتي، فقد اشترى سكّان آخرون قطعا أرضية صغيرة للاستقرار بها وبناء دورهم. شيئا فشيئا، نشأت علاقات أقل عنفا بين المستوطنين والأهالي. كانت الحياة أشدّ قوة من الشقاء بحيث فرضت عليهم الاستسلام للسكينة والهدوء.

وفي أماكن أخرى؟ كان استقرار المستوطنين لا يختلف من مكان إلى آخر. عبر كامل التراب الجزائري، تعرّضت القبائل الثرية لصدمات الهزيمة وتم تجريدها من ممتلكاتها إلى حدّ إفقارها. ولم يبق من القبائل التي حاربت

طوال عقود من الزمن أحد أعتى جيوش أوروبا إلا «بقايا من الأفراد المتناثرة» اضطرّت لتتحوّل إلى خدم وإلى عمال للزراعة بأجور المجاعة وإلى خمّاسين أو إلى جنود للإمبراطورية. واستولت الدولة الاستعمارية على الغابات وطبّقت على السكان قانون الغابات بصرامة قاسية: بمجرّد مفاجأة نعجة واحدة وهي ترعى في إحدى المحميات، كان صاحبها يتعرّض لغرامة تتجاوز مائة ألف فرنك.

وككلمة نهاية، سوف نستنجد بتاريخ الرومان القديم: «ويل للمغلوب !».

*

في 1890، رحل والدي عن دوار «بني سيار» ليستقرّ بدوّار أهمّ، هو دوار «الشحنة». كان هذا الدوار يحتضن قبيلة «بني عافر» الفقيرة التي كانت تتميّز بعنفها وكثرة مخالفات الانضباط وأعمال الشغب بها. إذ كانت ترتكب في الدوار العديد من الجرائم والنفراعة Nefraas وكانت تقع هذه المشادّات الجماعية على الخصوص في فصل الصيف، خلال توزيع وتقسيم مياه سقي بساتين الخضر والفواكه. فغالبا ما كانت تنشب بعض المناوشات بهذه المناسبة، و في فصل الشتاء، في موسم جني الزيتون. فقد كان يتصادف أن تكون شجرة زيتون ملكا لعائلتين كانتا تتبادلان وقتذاك التهم بالغشّ.

أدار والدي الأمور بكلّ حزم. محاولا وقف أعمال العنف تلك. كان يرى بأن إنشاء كتاتيب قرآنية من شأنه أن يغيّر من هذه العادات. وقد كان كاتبه الخاص «طالبا»، أي معلّم قرآن، له حظ كبير من التعليم والبرّ والحيوية. وبمساعدة الجماعة و«الوقّاف» - أي النواطير، أتى بمعلّمين آخرين للقرآن وفتح كتاتيب قرآنية في بوادٍ عديدة.

وقد بنى مدرسته الخاصة به هو أيضا. كان يتردّد عليها الكثير من طلّاب العلم. في هذه المحلّة، ولدنا وترعرعنا. وتولّت والدتي تربية عائلة من ثلاثة عشر طفلا. ستة منهم أكبر مني سنا، وستة آخرون أصغر مني. تعاونّا فيما بيننا وبقينا متّحدين.

كلّنا تعلّمنا، بنات وبنين، القرآن ومبادئ أخلاق الإسلام. كانت مواقيت المدرسة القرآنية شاقة للغاية. وكنا ننهض في الفجر لنخرج حوالي

الساعة الثامنة صباحا. وكنّا نستأنف الدراسة على الساعة الواحدة بعد صلاة الظهر. وكنّا نغادر المدرسة على الساعة الرابعة زوالا. كانت أيام الأربعاء بعد الظهر والخميس والجمعة أيّام عطلة.

بقيت مرحلة الصبا هذه عالقة بذاكرتي: اللّعب مع أندادي من الأطفال، ومشاجراتنا البيانية، فخاخ الطيور، قطف التوت على امتداد الوشائع والغارات على البساتين وسباق الوديان في غياب الآباء. أمّا في فصل الخريف، فكنّا نتمرّس على المبادئ الأولية للحرث خلف محراث بال كان يجرّه ثور، ولاسيما رائحة المواشي والمرابط المميزة التي لا زالت تلاحقني حتّى الآن. في فصل الربيع، كنّا نحتفل بميلاد العجول التي كانت تشاركنا ألعابنا.

عندما كنت في العاشرة من عمري، غادرت هذه الأماكن الجميلة التي قضيت فيها أولى سنوات شبابي. ونزلت في القرية التي كانت قد فتحت فيها قبيل ذلك أبواب مدرسة «أهلية» لتعليم اللغة الفرنسية. وكانت في استقبالي أجواء أخرى وألعاب جديدة وأساتذة آخرون قدموا كلّهم من منطقة القبائل الكبرى والذين كانوا يعلّموننا بكلّ إخلاص وتفان.

فهل ينبغي لي أن أكرّر ذلك مرة أخرى؟ إننا ندين كلّ شيء لوالدي الذي لم يتوقف أبدا عن إحاطتنا بحنانه وسلطته ونصائحه. كان طوال حياته يطفح حيوية ونشاطا. بالرغم من أنه كان أمّيا، لا يعرف الكتابة ولا القراءة، فقد كان شغوفا بالعلم بحيث كان يقول لناّ «تعلّموا. إنه الشيئ الوحيد الذي سوف أتركه لكم.»

*

لقد احتلّت أوروبا القارات الأخرى باسم قانون الغاب وباسم مصالحها. فقام الأقوياء باستعباد الضعفاء. فهدّمت حضارات جديرة بهذا الاسم وقضت على وجود شعوب بأكملها.

تلك الشعوب التي احتلّتها قامت باستغلالها وتجريدها من كلّ ثرواتها واستقرارها فنأت بها عن مسارها التاريخي الطبيعي.

في الجزائر، كان هذا الاحتلال شيطانيا. إذ أوقع بها باسم محاولة لضمّها أو لا أدري باسم ماذا لم تتحقّق أبدا لا على أرض الواقع ولا في العقول. فعلى العكس من ما حصل في تونس والمغرب، سلبتنا البورجوازية الفرنسية كل

مقوّمات شخصيتنا، بل انتزعت روحنا وبهذا شلّت فينا كل أسباب الحياة كانت تطمح إلى تحقيق إنجاز يفوق إمكاناتها وهو انتزاع قطعة من الشرق الإسلامي لتحوله إلى أرض للغرب، إلى «جزائر فرنسية» خالصة أقصينا منها تماما.

أضحت الجزائر ملكية كلّ من هبّ ودبّ من بين أولئك الذين مارسوا علينا إدارتهم مباشرة وسياسة الاستيطان الأوروبي وهيمنته على «الأهالي».

ولتسهيل المهمّة، غذيت مقرراتنا المدرسية بكل أشكال الإفك والأكاذيب. في 1830، رسّخ بعض الكتّاب والصحافيين أطروحة جزائر مسلمة، فوضوية، فقيرة وشاغرة. غير أن الضباط الفرنسيين الذين جالوا وصالوا البلاد على ظهر خيولهم، لاسيما «سانت آرنو» قد شهدوا على عكس ذلك.

لم تكن عنصرية فرنسيي الجزائر مثل عنصرية جنوب أفريقيا. ولكن، ما لم يستطع المستوطنون قبوله على الإطلاق أننا كنا نلحّ في مطالبنا على الإقلات من القوانين الاستثنائية والارتقاء إلى مستوياتهم. كانت هذه المطالب تثير فيهم المزيد من الحقد والخبث لأنهم يحتفظون في ذاكرتهم عن العرب بمخاوف عميقة منذ العصور الوسطى كانت تزداد حدة خشية رؤيتنا نستفيد، مثلهم، من الحقوق نفسها.

عندما كانت تسكت البنادق، كانت الحياة تستعيد مجراها. وكان الأهالي يتحرّكون عبر البلاد في حياتهم اليومية، غالبا بلا متاعب.

لقد كان قبولهم في المدرسة الفرنسية، حتى ولو كان صعبا ومحدودا للغاية، يجعلهم أقل عرضة للمخاطر. أنا شخصيا غادرت المدرسة الابتدائية في شهر مارس 1914 لألتحق بثانوية سكيكدة (فيليب فيل سابقا) التي فزت فيها بمنحة للنظام الداخلي. وبقيت بها حتى شهادة البكالوريا. بعد الخدمة العسكرية،واصلت دراستي في الصيدلة بكلية الجزائر.

ربّما لأنني قدمت من الريف ولأن اتصالات بالفرنسيين كانت نادرة، كنت أكنّ احتراما شديدا لأساتذتي. الذين كان لهم باع كبير في الثقافة والمعرفة، على غرار أساتذتي في كلية الطب. في تعاليمنا الإسلامية، كثيرا ما يتمسّك الطالب بمن يساعده ليصبح رجلا. وأنا أيضا لا أدين بالشيء القليل الذي تعلّمته إلا لهذا التعليم.

كما أنني احتفظت في ارتباطي الوثيق بهذه الثقافة بروابط لا انفصام فيها. اليوم وقد غادرت الساحة السياسية، فإنني أقسم وقتي بين بلدي وفرنسا التي أجد بها بعض عاداتي القديمة، كصحافة الرأي وانتقاد رجال السلطة والمسرح والأدب، إلى غير ذلك من العادات الجميلة التي فقدناها في بلدنا.

إنني اهتمّ بالمشكلات التي تواجه البلاد التي أقيم بها، وهذا أمر طبيعي، كالبطالة وظروف العمال وصعوبات الإنتاج الصناعي والزراعي التي تزداد استفحالا بفعل المنافسة...

لكن منذ إنهاء الاستعمار، ما فتئت عنصرية وعنف شريحة من الشباب من مختلف الأعمار تشوّه وجه فرنسا أكثر فأكثر. وغدا مهاجرو شمال إفريقيا عرضة لكل الاتهامات ولقمة سائغة لكل أشكال الجرائم المجّانية. لكن إن لم تستبح القوى الأوروبية العظمى، كفرنسا وإنجلترا وبلجيكا وهولندا حرمة بلداننا، لما ذهب هؤلاء المهاجرون إلى بلدانهم. بل غالبا ما كنّا نذهب إلى أوروبا إلاّ لحماية المستعمرين من أعدائهم.

في فرنسا، أنا في بلدي كما كان صديقي المرحوم جاك شوفالي في الجزائر في بلده أيضا.

في الضفّة الأخرى للبحر المتوسط، ألتقي بأبناء بلدي الذين تربطني بهم علاقات صداقة حميمية، وكذلك ببعض فرنسيي الجزائر الذين نستحضر معهم أيام زمان بلا عداوة أو فظاظة.

لكنّني لا أشعر بالحياة إلا في الجزائر، وفيها أتمنى أن أقضي آخر أيام حياتي.

*

لا أستطيع أن أرحل عن هذه الدنيا دون أن أثير مرّة أخرى النظام الاستعماري. إن كنت ضربت المثال بعشيرتي وأسرتي فلأن ما تعرّضنا له قد كان أيضا نفس المصير الذي لقيه الجميع.

خلال استقراري بمدينة سطيف كصيدلي، وضع سكان هذه المدينة ثقتهم بي وانتخبوني ممثلا عن المنطقة ومستشارا عاما ومستشارا بلديا ومندوبا ماليا ونائبا ومستشارا في المجلس الجزائري.

وفي أثناء ممارستي لهذه المهام المختلفة، حظيت بفرص عديدة لأجوب مختلف مناطق الجزائر. وعثرت في كل الأماكن على نفس مظاهر البؤس والظلم التي كان شعبنا يئنّ تحت وطأتها.

حينها كان حزب الشعب الجزائري PPA يعتقد - وهو الحزب الذي كان يزعم أنه كان «حزب الأخوّة» المنغلق في دوغمائيته العقائدية وحياته السرّية - أننا كنّا في الحزب الديمقراطي للبيان الجزائري UDMA وفي جمعية العلماء مجرّد أعيان لا نفقه شيئا في مشكلات الجزائر العميقة. وقتذاك أوسعنا هذا الحزب وبالا من الشتائم والإهانات والافتراءات الباطلة. وحتى اليوم، وبعد استقلال انتزعناه معا، لم يتوانوا عن تشويه سمعتنا والافتراء علينا. في نوفمبر 1984، نشر بعض عناصر هذا الحزب ممن لا يزال يشدّهم الحنين إلى الماضي عددا خاصا لصحيفة «جزائر الأحداث - Algérie Actualités- امتدحوا فيه «الملهم» القديم، مصالي الحاج، وكأنه لم يطعن الخنجر في ظهر جبهة التحرير الوطني وجيش التحرير الوطني طوال مدة حرب الجزائر. ففي تلك الفترة، قاموا بإدانته بشدة. واليوم، انقلبوا رأسا على عقب. لم يسمح بنشر هذا العدد. واليوم، يحتل العديد من هؤلاء مواقع تعود عليهم بمكاسب طائلة، بل أنهم أصبحوا، يشهرون ثرواتهم الفاحشة كما كان في الماضي شعبنا يجترّ مرارة البؤس والشقاء. ولم يكتفوا بهذه الترقية الاجتماعية. بل أرادوا حكم البلاد وهم لا يدركون بأنهم عاجزين تماما عن ذلك.

في الواقع، عندما تطلّب الأمر إيقاظ جماهيرنا وتوعيتها بأنه كان لها الحق في العيش في الرفاهية والحرية والكرامة، غالبا ما كنّا نتفوّق عليهم نجاعة وفعالية.

لقد هاجمنا علنا المؤسسات الاستعمارية وواجهناها باستعمال قوانينها الخاصة وبما هو أصعب وأشقى من اعتماد مواقف الممانعة شبه السرية. إننا لم نستثن لا الإدارة ولا الحكومة العامة ولا مواقف الإبعاد لدى كبار المستوطنين سادة الرأي العام آنذاك. وقد نلنا من مواقفهم وزعزعنا قناعاتهم «بسموّهم العرقي».

كان يجب أيضا المزيد من القتال والمقاومة! لقد مثلت مرات ثلاث أمام المحاكم التأديبية ومرّة أمام محكمة الجنايات وكدت أمثل أمام المحكمة العسكرية. تقاتلت بكلّ ضراوة مع إداريي البلديات المختلطة الذين كانوا

يعاكسون العوامّ المساكين. في 1935، عرضت على وكيل الجمهورية عريضة للعمال الذين كانوا يطالبون ربّ عملهم بأجورهم. قدم المستعمر المتهم ليجدني في مقهى «فرنسا» بسطيف الذي كنت موجودا به واعتدى علي. في 1937، وأنا في بلدية راس الوادي (طوكفيل سابقا)، انقضّ علي رئيس هذه الأخيرة – وهو أحد أعيان الماسونية – ثمّ انهال علي بالضرب لشدة غضبه إثر هزيمة ربيبه الدكتور «سماتي».

إنّ تمثيل شعب من الفلاحين الفقراء الأمّيين الذين لا حول ولا قوّة لهم للدفاع عن أنفسهم ليس ضربا من ضروب التسلية، بل على المرء أن يقبل بالحياة وركوب كلّ المخاطر و الاستعداد باستمرار لكل الاحتمالات والمفاجآت. الفلاح لا يبالي بالوقت وقد يطرق بابكم في أيّ ساعة لكي يعرض عليكم دائما مشكلة يراها كبيرة في عينيه.

لقد عشت سنين طويلة في مثل هذه الأجواء التي أوجدت بيني وبين الفلاحين روابط يعجز اللسان عن وصفها. عشرون سنة بعد الاستقلال، تواصلت نفس الزيارات تقريبا بالوتيرة نفسها أيضا كما في الماضي. لم أعد إلا عجوزا مريضا، ومع ذلك فإنهم واصلوا زياراتهم لي بلا انقطاع. «هل أنت في حاجة إلى شيء؟ كلا، بل جئنا لنقف على أحوالك ونطلب مؤازرتك لنا في تحمّل أوزار المظالم الجديدة !»

*

في شهر يوليو من عام 1962، نلنا استقلالنا فتصرّفنا كشعب متخلّف وبدائي. تنازعنا فيما بيننا المراتب وأدرنا ظهورنا للقيم والفضائل التي أوصلتنا إلى النصر. شاهدت آدابنا العامة وهي تنحل انحلالا لتؤذي الجزائر المسلمة في العمق كما لم تفعل ذلك طوال سنين الحرب الطويلة. لقد زيّنت جمهوريتنا الجزائرية بلاحقة «الديمقراطية الشعبية»، وهو ما يعني بكل وضوح بأنها ليست ديمقراطية وليست شعبية أيضا.

تعرّضنا لديكتاتوريتين، ديكتاتورية بن بلة ثم سرعان ما أعقبتها ديكتاتورية هواري بومدين. إذ اتخذ بن بلة رئيس دولة كوبا فيدال كاسترو، ونظامه الشمولي وسلطته الفردية وإيديولوجيته الشيوعية قدوة له. لم تجد

الجزائر نفسها في ذلك فحسب، بل وقعت في بحيرة الفوضى العارمة والمحاباة ونظام الترميق - بريكولاج - والوصولية وثروات الكسب الحرام.

في 14 يونيو 1965، قام وزير دفاعه بتنحيته من على السلطة بدعم من الجيش ونصّب نفسه رئيسا للدولة دون مراعاة لأي قانون أو شرعية.

كان لبومدين متسع من الوقت لتجزئة ما تبقّى من الجزائر المسلمة. خرّب الزراعة وأرغم الفلاحين على هجرة أراضيهم لصالح «ثورة زراعية» لم يتم التمهيد لها بشكل جيّد واستقطبهم إلى المدن بحثا عن قوت لهم وركضا وراء سراب صناعة «مصنّعة». وأصبحت التجارة حكرا على أقلية من مقرّبي النظام.

خرّب كلّ ما دفعنا إلى الانتفاضة، مثل احترام حقوق الإنسان، احترام الحريات الفردية وكرامة المواطن، وعودة الفلاح إلى الأرض واحترام الملكية الخاصة. استقرّ بنا الحال في كل ما هو مؤقّت والرداءة وتوقّفنا عن العمل. والتبس على أغلبية الجزائريين مفهوم الاستقلال بمفهوم دولة السخاء والرفاهية. وتعلق الجميع بدولارات النفط.

لكن فجأة ما ظهر حتى عند أبواب الجزائر العاصمة الإرهاب السياسي الذي لم يتردّد في احتراف التقتيل والتنكيل بالأبرياء وجرّ بلادنا إلى نفق مظلم أشبه ما يكون بنفق أزمة لبنان البائس. مجزرة بلدة الأربعاء خطيرة للغاية. استبدّ بنا شيطان الأنانية والركض وراء السلطة الجديدة التي تريد أن تفرض نفسها بالرعب. وتحوّل العنف إلى الملاذ الوحيد أمام اليائسين والمنبوذين من مجتمعنا «الاشتراكي».

هذه المأساة تهمّ الجميع. ولا تتوقّف على الدركي فقط، ولكن على يقظة الشعب وتلاحمه. وبالخصوص، على قدامى المجاهدين الذين يجب عليهم التصرّف قبل غيرهم. فبفضل تضحياتهم الجسام، أعادوا لنا أرض أجدادنا. ومرّة أخرى، واجبهم هو حماية وحدتنا الوطنية. كفى للحرب الأهلية!

كدت أن أستسلم للهلع وأنا أتلقى هذا النبأ لولا مزاجي التفاؤلي. طوال مسيرتي، لم أعرف اليأس على الإطلاق. كلّ قضية عادلة تظلّ عادلة حتى انفراجها. لقد سجّلنا تأخرا قاتلا. فهل سنصل إلى نهاية هذا القرن سالمين؟ لا للخلط بين الديمقراطية والحرية مع اللاتسامح وفوضى النظام العام. حان

الوقت لسلطة قوية وعادلة معا لتتسلّح بقوانين جيدة وتحشد طاقات البلاد من جديد وتجبرنا على الكنس من أمام أبوابنا.

ماذا حمل المستقبل لنا؟ إلى أين تتّجه حضارتنا؟ لنحذر من الإدلاء بأي رأي. المستقبل بيد الله عزّ وجل وبيد من سيصنعونه.

نعلّ القارئ سيسمح لي وأنا في هذه السنّ أن أعبّر عن إحدى أعزّ أمنياتي: أتمنى أن أرى أجيال الغد وهي تعيش من ثمار جهدها في كنف الرفاهية والسلم.

فرحات عباس

الجزائر، مارس 1985

أولا

بناء الدولة الديمقراطية

دستور يضمن حرية المواطنين وأمنهم ومساواتهم جميعا أمام القانون

إعادة تأهيل الحاضرة الإسلامية

«العنصر الجوهري في دواليب عمل الإنسانية ليس الدولة، وإنّما الفرد»
آلبرت آنشتاين

لا يمكننا أن نتخيّل تطوّر الجزائر خارج سياق شمال أفريقيا. فإن بقيت الحكومات الجزائرية عاجزة منذ يوليو 1962 على استدراج الجماهير في ركبها وإخراج الجزائر من الظرفية، فلأنها تريد أن تنتزع بلادنا عن المجموعة المغاربية وأن تفرض عليها خيارات لا تتماشى وتطلعاتها.

ما يهمّنا هنا ليس كتابة دليل للتاريخ، بل شيء آخر. وما أقصده هنا هو استخلاص العبر من الماضي بما يسمح لنا بالتحكم في الحاضر تحكّما أفضل.

لا يستطيع الحاضر أن يتجاهل الماضي بلا قصاص. وعندما ينتهك ضمير الجماهير الشعبية، يمكننا عندئذ أن نتوقّع ارتداد ألسنة النار الخطيرة وحدوث اضطرابات قاتلة. إن أردنا أن نتفادى الحريق، فعلينا ألا نلعب بالنار.

لخّص أحد كتب «المارشال جوان Maréchal Juin»[1] ماضي بلاد البربر كالآتي:

---

1. آلفونس جوان «التاريخ الموازي- فرنسا في الجزائر 1830 – 1962»، المكتبة الأكاديمية بيران، باريس، 1963 . Alphonse Juin. Histoire parallèle. La France en Algérie

يمتدّ تاريخ شمال أفريقيا لألفين وثمانمائة وأربعة وعشرين سنة خلت منذ تأسيس قرطاج. ولاسيما تاريخ الجزائر طوال هذه الحقبة الزمنية الطويلة. ويمكننا أن نقسّمها إلى ثمان مراحل كبيرة: حقبة قرطاج من 860 إلى 146 قبل الميلاد، أي ما يعادل 714 سنة، الحقبة الرومانية من 114 قبل الميلاد إلى 429 ، أي ما يعادل 575 سنة، حقبة الوندال من 429 إلى 529 ، أي أقل من قرن من الزمن بقليل، الحقبة البيزنطية من 525 إلى 647 ، أي ما يعادل 122 سنة، الحقبة العربية من 647 إلى 1070، أي ما يعادل 423 سنة، الحقبة الإسلامية البربرية من 1070 إلى 1492، أي ما يعادل 422 سنة، الحقبة العثمانية من 1492 إلى 1830، أي ما يعادل 338 سنة، الحقبة الفرنسية من 1830 إلى 1962 ، أي ما يعادل 132 سنة والحقبة التاسعة تدخل في التاريخ[1]».

يصلح هذا الجدول لسائر بلاد البربر حتى قدوم الإخوة بربروس. مؤخرا، لخصت شخصيا في كتاب المراحل التاريخية المختلفة لها. وما يجب أن نحتفظ به من هذا التاريخ المشترك لبلاد البربر هو انقسام المغرب الكبير إلى دوّل ثلاث إثر الهزيمة النهائية للعرب وانتكاستهم في أسبانيا عام 1492.

وبالفعل، فقد أدّى انقسام إمبراطورية الموحّدين إلى ميلاد ثلاث سلالات حاكمة. إذ استقرّت في تونس سلالة الحفصيين التي كانت مملكتها تمتدّ من ناحية قسنطينة حتى بجاية، وسلالة المرينيين التي احتلت المغرب الأقصى والتي كانت فاس عاصمة لها. في البداية، تلتها سلالة السعديين التي نشرت الإسلام في موريتانيا وأفريقيا السوداء، في عام 1594، ثمّ سلالة العلويين الحالية، في عام 1640.

وفي الوسط، حكمت سلالة عبد الواد التي كانت تلمسان عاصمة لها والتي كانت تمتدّ من ناحية وهران إلى الجزء الغربي لمنطقة الجزائر.

أما في تونس وتلمسان، فسرعان ما تلاشى سلطان مملكتي الحفصيين وعبد الواد بفعل دسائس البلاط وانقسمت أراضيهما إلى قبائل وإمارات متناحرة فيما بينها. وعلى خلاف مملكة فاس، تفتّت المملكتان، ولاسيما في المغرب الأوسط. ونشأت دويلة في «الفقيق»، وحكم ملك في مدينة تنس،

1. نفس المرجع المشار إليه أعلاه.

وحكم ملك آخر، ملك كوكو، في منطقة القبائل، واستقرّ ملك في توقرت. وشكلت بعض القبائل المستقلة اتحادية في الحضنة وتورطت أخرى في سلسلة من النزاعات والصراعات التي لا نهاية لها.

أيقظت هذه الفوضى أطماع أسبانيا المسيحية وأثارت عقلية الحروب الصليبية. وكادت أسبانيا تحتل سائر موانئ شمال أفريقيا: طرابلس، تونس، جيجل، بجاية، الجزائر، شرشال، تنس، مرسى الكبير، وهران، الخ.

أثارت هذه التهديدات الجديدة لأوروبا ضد المغرب الأوسط والمغرب الشرقي مخاوف سكان مدينة الجزائر. آنذاك، فاستنجدت بالأخوين بربروس اللذين أصبحت لهما شهرة كبيرة في البحر المتوسط.

استطاع الأخوان بربروس، باعتبارهما من كبار البحارة، أن يطردا الإسبان. وقاما باحتلال مملكة بني عبد الواد وتوسيع محافظة الجزائر. وألحقا بها أيضا محافظة قسنطينة التي كانت تخضع، قبل قدومهما، لمملكة تونس.

استقرّا في مدينة الجزائر وأسّسا أيالة الجزائر. ولم تدخل تسمية «الجزائر» التاريخ إلا انطلاقا من هذه الأيالة.

في 1830، احتلت فرنسا الاستعمارية البلاد.

في 1927، كتب المؤرّخ إي. ف. غوتيي E.F. Gautier[1] بشأن المغرب الكبير والقوى الأجنبية التي تعاقبت على احتلاله ما يأتي:

«كلّما توغّلنا في أعماق الماضي، شاهدنا سلسلة غير متقطّعة من قوى الهيمنة الأجنبية على بلادنا. إذ أعقب الفرنسيون الأتراك الذين أعقبوا العرب. ثم أعقب العرب البيزنطيين الذين أعقبوا الوندال. وأخيرا أعقب الوندال الرومان الذين أعقبوا بدورهم القرطاجيين.

ولكم أن تلاحظوا، فمهما كان الغزاة، فإنهم كانوا يسودون بلاد المغرب حتى يأتي غزاة آخرون ويطردونهم ليحلّوا محلّهم. ولم يفلح الأهالي على الإطلاق في طرد أسيادهم. إذ تركوا سيول الغزوات تغزو ديارهم بلا انقطاع وكأنهم أصيبوا بعجز تامّ، بل نكاد نقول إنهم كانوا تماما في غفلة من أمرهم»[2].

1. «غوتيي E.F. Gautier» قرون بلاد المغرب المظلمة – Les siècles obscurs du Maghreb – بايو – باريس 1927.

2. نفس المرجع.

هذه الملاحظة التي كانت صالحة بالأمس لم تعد كذلك اليوم. وفي نهاية القرن العشرين هذه، الأهالي من المغاربة والتونسيين والجزائريين هم من وضع حدّا للاستعمار الفرنسي. باستثناء ليبيا التي تحرّرت بفضل التدخل الإنجليزي.

إنّنا نعيش إذن حقبة تاريخية استثنائية. لو بقي المؤرخ «غوتيي» على قيد الحياة، لاضطرّ إلى تغيير حكمه. في عصرنا هذا، استطاع الأهالي أن يطردوا أسيادهم.

فهل ينبغي لنا أن نذكّر بذلك؟ لم يكن ذلك ممكنا إلا لان المغرب الكبير أصبح ينتمي منذ القرن السابع إلى «الأمة الإسلامية» الكبيرة التي تتجاوز الحدود الإقليمية.

في 1962، تحرّرت البلاد إثر حرب ضروس خاضها الجزائريون بأنفسهم. وهنا برز عنصر جديد إلى الوجود!

*

نودّ لو نسأل الموتى من أجل إنارة طريق الأحياء. لكن التاريخ متقلّب الأطوار ولا يخضع إلا نادرا لأمنياتنا.

غير أن دراسة بلاد المغرب قد تسمح لنا بالاحتكام إليهم بما يمكن أن نسمّيه «ثوابت» هذا الجزء من أفريقيا :

1 - كانت النزعة إلى الوحدة حاضرة في كلّ العصور. منذ ماسينيسا حتى يوغرطة، ومنذ الصنهاجيين حتى المرابطين Les Almoravides والموحّدين. وكان الهدف الأول للملوك والسلالات الحاكمة دائما وأبدا هو إنهاء الصراعات القبلية وتحقيق وحدة بلاد البربر والمغرب العربي البربري فيما بعد.

2 - على المستوى البشري، كان تناسل الأعراق تناسلا دائما. من طرابلس إلى المغرب الأقصى، كانت القبائل تتنقّل وتستقرّ حسب حظوظ الحرب. ومع انتشار الإسلام، ازداد الخليط العرقي حدّة. ومن الجنوب إلى الشمال،ومن الشرق إلى الغرب، تمازج البدو مع الحضر وتزاوجوا وتعاقبوا

فيما بينهم ليشكّلوا نموذجا بشريا واحدا هو العنصر المغاربي الذي بلوره الإسلام.

3 – مع اعتناق الإسلام، لم يحتفظ المغرب الكبير بخصائصه وبنزعته الفطرية إلى التطرّف والانشقاق. خلال الحقبة المسيحية، أسّس الدوناتية. وبعد اعتناق الإسلام، احتضن الخوارج وسلالة الفاطميين، الخ.

4 – البربر الذين وقعوا باستمرار تحت هيمنة قوى أجنبية لم يتعلقّوا بأي من الحضارات الأجنبية ما عدا الإسلام ديناً وحضارة. وفي نهاية كل هيمنة، كانوا يقفون في وجه المحتلّ القديم دون الاستسلام للوافدين الجدد ويرمون بكلّ أعماله إلى درجة أنهم لم يحتفظوا من القرطاجيين والرومان والوندال والبزنطيين إلا بأشياء قليلة. يأتي احتلال ليمحو آثار احتلال آخر.

منذ 1962، يبدو أن الجزائر تريد أن تحيي من جديد هذا التقليد القديم. بعد تحرّرها من الاستعمار الفرنسي،أدارت ظهرها لدروس التاريخ «لتستنسخ» في النهاية نموذج مجتمع ماركسي اشتراكي من الديمقراطيات الشعبية، كما تحوّلت في العصور القديمة، من حضارة قرطاج إلى الحضارة الرومانية لتتنكر لكليهما فيما بعد.

بعبارة أخرى، انطلقت بلادنا من الصفر بعدما حصلت على استقلالها ولم تتعلم شيئا، بل لم تحتفظ بشيء من القرن الماضي إلا باستغلال الغاز والنفط اللذين تم اكتشافهما في الصحراء.

من المعروف أيضا أن الجزائريين ما فتئوا منذ 1962 يهدّمون أكثر ممّا يشيّدون. وحتى ما يقومون بتشييده، فإنّه يظلّ بلا تأثير على الجماهير لأنه قام على الارتجال ويفتقر إلى أيّ سند تاريخي.

لا شكّ أن هذه الصورة تبدو لنا بسيطة تماما. لكن لا يمكننا أن نتجاهلها دون الوقوع في المجازفة. ولتوضيح الأوضاع الحالية توضيحا أكثر، فالأحرى بنا أن نستحضر أقوال الرئيس بورقيبة[1] الذي أشار إليه «جان دانيل»[2] بشأن تونس. ولكنها تصدق أيضا على كل بلدان شمال أفريقيا:

---

1. الحبيب بورقيبة هو أول رئيس للجمهورية التونسية(1957).
2. جان دانيال « الوقت المتبقي Le temps qui reste – غاليمار – باريس – 1984.

«صحيح أن الحضارات تنهار وهي تحتاج إلى صدمة حتى تحيا من جديد، فلا مانع لي إن اعترفت بأن تونس، قبل فرنسا، كانت تشبه حيزاً من الفراغ لا حقيقة له ولا روح على الإطلاق.

عندما يحدث فراغ، فالتاريخ أمامنا يقول بأن أعتى قوة بجوارنا هي التي تهبّ لملئ ذلك الفراغ. لنقل إن هذا العمل التاريخي قد وقع على عاتق فرنسا[1].»

ما ندين به للغرب أنه فتح أعيننا على الثقافة العلمية واحترام حريات الإنسان الأساسية. وفي هذا المجال، ليس هناك أي اختلاف بين الثورة الفرنسية وثورة الولايات المتحدة وثورة إنجلترا والإعلان العالمي لحقوق الإنسان وبين الثورة الإسلامية. ومن خلال الثورات الأولى، اكتشفنا الثانية من جديد.

بالنسبة لنا، نحن المسلمون الملتزمون الذين طلبنا من الإسلام مفهوم الحياة وسبب وجود الإنسان على الأرض، يعتبر احترام الديمقراطية واحترام حقوق الإنسان ومساواة الجميع أمام القانون، ودراسة العلوم الدقيقة ومعرفتها جزء لا يتجزأ من الإيمان.

القيم الاجتماعية والسياسية والأخلاقية للإسلام هي قيم مثالية. وما دون ذلك كيفية تطبيقها من قبل البشر. فما علمنا إياه الكتاب شيء وتطبيقه على المجتمعات شيء آخر.

مهما يكن من أمر، فإنه من غير الضروري، بل من المخجل أن نستعير من أوروبا الصناعية اشتراكيتها الماركسية والشمولية من أجل إعادة إحياء مجتمعنا وضمان العمل للعمال وضمان قوتهم وكرامتهم. وما هذا إلا دليل على ضعف الفكر والجهل التامّ بمبادئ الإسلام الاجتماعية.

لقد شاهدنا بأن النظم الاجتماعية الشيوعية، من الاتحاد السوفياتي إلى الديمقراطيات الشعبية، لم تتوقف عن محاربة الديانات، وبالخصوص الإسلام.

---

1. جان دانيال Jean Daniel – نفس المرجع المشار إليه.

يخضع كلّ من تمركز الرأسمالية في أوروبا والمجتمع الذي تولّد عن ذلك لبنى معقّدة للغاية. فهل يمكننا أن نغيّر بنيتهما دون أن نهدم حريات الإنسان والمجتمع نفسه؟

بالتأكيد، نعم. لكن يجب القيام بالأبحاث في هذا الاتجاه بشكل مستمر. فتحقيق توازن عادل بين الرأسمال والعمل ليس مستحيلاً.

أمّا فيما يخص الاشتراكية الماركسية اللينينية التي تم تصوّرها لمعالجة وضعية معينة باستحداث مجتمع أكثر إنصافا، فقد تجلّى تطبيقها كارثيا تماما. فأقل من قرن من الزمن كان كافيا لنكتشف بأن كارل ماركس قد كان دجّالا. مجتمع بلا إله، وبلا طبقات وبلا دولة ما هو إلا مجرّد وهم أو حلم، بل نظرة طوباوية.

لقد بينت التجارب المختلفة بأن الاشتراكية التي ابتليت بها أفريقيا قد آلت إلى التقهقر والرجوع إلى المجتمعات الإقطاعية التي تمثّل فيها أقلية من «النبلاء الجدد» كل شيء وجماهير المواطنين لا شيء. مثل هذا النظام محكوم عليه بالفناء أو بالتغيير العميق.

ومهما يكن، هذه الاشتراكية ليست «اللباس» المنشود للجزائر. فلا يمكن أن نزرع شجرة من موسكو في هضابنا العليا لأنها ستموت لا محالة.

في كلّ الأحوال، لم تعرف الرأسمالية عندنا، في الأوساط الجزائرية الضيقة، أيّ تراكم لها. فلا يمكننا أن نكوّن طبقة من الرأسماليين وطبقة من العمال بالجمع فقط بين الثروات الصغيرة ومظاهر البؤس الشديد من هنا وهناك. وبالاعتماد على «صراع الطبقات» لتعزيز الاشتراكية، قد يتعرّض الحكم للشلل كالآلة التي تدور في الفراغ لأننا لا نملك لا «البورجوازية الرأسمالية» ولا «الطبقة البروليتارية» حسب المفهوم الأوروبي للمصطلح.

قلت في موضع آخر ما يمكن أن يقع عندما نتلاعب بالمصطلحات التي لا نعرف معانيها بدقة[1]. عندما تطرح مشكلة بمصطلحات مبهمة، سيتعذر حلها.

---

1. أنظر في هذا المستوى كتابي «الاستقلال المصادر» المنشور في دار «فلاماريون» للنشر – Flammarion باريس 1984 و«Alger-Livres»، الجزائر – 2011.

لقد كانت للشعوب كلمتها في كلّ الأزمنة، ولاسيما في عصرنا هذا. فلم يتحرّر الشعب الجزائري بإمكاناته الخاصة ليتحوّل من جديد إلى شعب «مستعبد»، يمكن التلاعب به في أي وقت. وأي سياسة لا تراعي السياق التاريخي مآلها، بقوة الأشياء، الفشل.

نتذكّر بأن بن بلة، عند وصوله تونس عام 1962، قد ردّد ثلاث مرات: «إننا عرب، إننا عرب، إننا عرب» ! تبدو مثل هذه الشهادة في منتهى التبسيط. ولذلك يجب استكمالها. عرقيا، نحن عرب بربر بالأساس. لكن المشكلة أصبحت ثانوية. ما يهمّ في رأينا هو انتماؤنا مع كامل بلدان شمال أفريقيا إلى الحضارة الإسلامية.

الإسلام إذن هو العامل الجوهري والغالب. وزنه أهمّ من العرق. منذ بضع سنين فقط، ذكّرني بهذه الحقيقة طفل راع صغير من عقر دارنا بكثير من البداهة:

في 1922، كنت أؤدّي الخدمة العسكرية في مدينة جيجل وألعب كرة القدم في الفريق المحلّي. وفي يوم من الأيام، تنقّلنا إلى قسنطينة لنواجه فيها إحدى المباراة. ونحن في طريقنا اقترب منّا راع صغير، كان في الثانية عشرة من عمره، بينما كنا قد توقفنا لأخذ قسط من الراحة. فبادره لاعب فرنسي كان معي في الفريق بسؤال: «هل أنت عربي أم قبائلي؟». و دون أيّ تردّد ردّ عليه هذا الطفل: «أنا مسلم» !

لقد قدّم هذا الطفل، أفضل مما قدم بن بلّة، قدم الدليل القاطع على حقيقة الواقع الجزائري التي تمنح بلادنا ميزتها الخاصة والثابتة. ان الاسلام في الجزائر كالماركسية في كوبا. إذا كان شعبنا فتيّا، فحضارتنا عريقة. وبفضل نهضة هذه الحضارة انبثقت الجزائر الجديدة من العصور الوسطى لتدخل في العصور الحديثة. ترك عجلة التاريخ تسير يعدّ أكثر السبل حركية وأمانا من أجل استعادة نفس جديد والانطلاق من جديد نحو آفاق جديدة.

إذا ما احتكمنا إلى توجيهات حرب التحرير، فإن الطريق الذي يجب انتهاجه قد تم رسمه بموجب نداء أوّل نوفمبر 1954 و ميثاق الصومام 1956. بفضل مضمونهما الإيديولوجي ولبراليتهما السياسية، كلاهما دخلا

قدسية تاريخ بلادنا. إذ أضفت عليهما تضحيات شعبنا الجسام ودماؤه الزكية قدسية لا غبار عليها.

لقد التقى الحزب الشيوعي الجزائري من جديد بإطاراته. وفي مثل هذه الظروف،كانت الظروف تتميز عشية صياغة ميثاق ثالث بمدّ شيوعي جديد باتجاه العمال والطلبة. لم يكن هذا المدّ ظاهرة عفوية، وإنما كان عملية تم تدبيرها بروية ومنهجية وسرية تامة. وقد تطوّر هذا المدّ خفية. ولم تستطع جبهة التحرير الوطني أن تكتشف الأمر رغم القرائن العديدة التي كانت تسمح مع ذلك باستشفافه منذ وقت طويل.

لقد تعزّز المناضلون الذين كانوا يحتلون من قبل مناصب هامة في دواليب الدولة بعودة أولئك الذين كانوا في فرنسا. وكانت الإطارات التي تعمل في وزارة العمل والشؤون الاجتماعية من أنشط العناصر التي تولت صياغة جميع النصوص المطبقة في هذا القطاع، لاسيما قانون تسيير المؤسسات الاشتراكية.

وقد سمحت لهم هذه الوضعية بالسيطرة على الاتحاد العام للعمال الجزائريين. ويأملون في السيطرة في أقرب الآجال على الاتحاد الوطني للنساء الجزائريات. أمّا فيما يتعلق برئيس جمعية عمال الشركة الوطنية للصناعات الجلدية فقد سبق له أن فتح دورة الندوات حول موضوع الميثاق الوطني ومهام النقابات الحالية. وقد حلل الأوضاع تحليلا ماركسيا محضا.

انطلاقا من مؤتمر الشباب في مايو الأخير[1]، خرج نشاط الشيوعيين من السرية. واعتزمت الحكومة من جهتها أن تسند قيادة جبهة التحرير الوطني إلى العقيد محمد الصالح يحياوي.

فهل يستطيع أن ينتزعها من المناضلين الشيوعيين المعروفين بالحيوية المفرطة وإيمانهم القوي بالقضية. لا أعتقد. وقع الضرر وازدادت الأوضاع تردّيا. لم نحصد إلا ما زرعنا. في الوقت الحالي، جبهة التحرير الوطني ما هي إلا عبارة عن حزب برأسين لا حيلة له ولا قوة. فلم يعد تجمّعا للاستقلال الوطني. بل تحوّل إلى شبه حزب اشتراكي طلائعي لا يسيطر عليه إلا الماركسيون. ولم يعد في مقدوره الدفاع عن جماهير المسلمين أو تجنيدهم. ومن ثم حدثت حالة من التراخي ووقع خطر الشمولية الذي يتهدّدنا.

---

1. في 1976، كتب المؤلف من أعماق إقامته الجبرية،... (ملاحظة الناشر).

نتذكّر بعد استقالتي من المجلس الوطني التأسيسي، عندما هاجمني، في أوت 1963 بن علا، أحد أتباع بن بلة الأوفياء، خلال ندوة صحافية وتجرّأ آنذاك على التذكير بماضيَّ السياسي وكأنّ جيله كان له الحقّ في الحكم على جيلي. لم يولد بعد عندما كنت أناضل مع الأمير خالد[1] وعندما كنت أقاتل مناهضي الإسلام والمستعمرين من كل حدب وصوب. وهذا يعني أنني أضطلع بصوت عالٍ بمسؤوليتي إزاء هذا الماضي الذي كرّسته للدفاع عن مجتمع مسلم وقع ضحية كل أشكال القهر والاضطهاد والظلم.

لقد بلغ به الصلف والفظاظة ما جعله يطردني من جبهة التحرير الوطني التي تحوّلت إلى حزب شمولي. وأقلّ ما يقال عن ذلك، أنّه لم يكن لهذا الطرد أيّ فائدة طالما أنني لم أنخرط قط في حزب لم يعد له أيّ وجود قانوني منذ يوليو 1962 وقد أدار ظهره للحرية والإسلام. وغدا هذا الحزب، بين يدي أقليّة من المناضلين الطموحين، أداة للمساومة بالاشتراكية لإرواء تعطشهم للسلطة.

منذئذ، ما فتئت جبهة التحرير الوطني هذه، بمناصرتها للشيوعية الخفية،تعرف الفشل تلو الفشل. وقد وجدت نفسها، وهي تريد أن تنتزع الأرض الجزائرية من العقيدة الإسلامية، أمام مشكلة أصعب من المشكلة التي نواجهها عندما نحاول انتزاع طفل من أحضان أمّه.

ديانة كارل ماركس[2]ونموذج مجتمعه اللذان ولدا وسط ضباب أوروبا وظلال الغابات الجرمانية الكثيفة يفتقدان إلى وضوح وضياء آسيا، مهد اليهودية والمسيحية والإسلام. ويمكن لنا أن نستنتج بأن حقيقة ماركس هي حقيقة تقريبية، إقليمية ومحلية خاصة بالشعوب المصنّعة. إنّها حقيقة «غذائية» بالدرجة الأولى. أما الحقيقة الإلهية فهي حقيقة كونية. إنها حقيقة العقل

---

1 - 1875

1936). نشرت أول مقال لي في 1919 وأنا في العشرين من عمري بصحيفة «الإقدام» للأمير خالد.

2. ولد كارل هنريش ماركس في 5 مايو 1818 في ريتانيا وتوفي في 14 مارس 1883 بلندن. باعتباره فيلسوفا وعالم اقتصاد ومؤرخا ومنظرا اشتراكيا، فقد ألف على سبيل المثال لا الحصر كتاب (الرأسمال Le Capital 1867) الذي يعتبره كارل ماركس أهم أعماله.

والقلب معا. «لأن الإنسان لا يعيش على الخبز فقط»[1]، ولاسيما عندما يتم استهلاك هذا الخبز تحت الإكراه والخوف.

قلت ذلك من قبل. إنني لا أؤمن بثورة كارل ماركس. ولا أؤمن بالمجتمع دون إله وبلا تباين فئاته الاجتماعية. بل أكثر من ذلك، أنني لا أؤمن بالفعالية الكاملة للعمل بلا حرية وبلا حرية المبادرة والاستمتاع بمتعة النجاح. وبالمقابل، لا يمكن لنشاط الإسلام الاجتماعي ، هذه الاشتراكية الإنسانية، التي تدعو إلى رقابة الثروة واحترام الحريات العامة والمساواة بين المواطنين لا يستجيب إيجابيا للتغيير والرقي اللذين يتطلع إليهما شعبنا. لا غش في هذه الاشتراكية. هي اشتراكية بوجه إنساني وهي اشتراكية أيضا تحترم كرامة الإنسان وحريته.

منذ 1962 ونحن مستقلون. وها نحن في عام 1977. فهل سنشاهد ردّ الاعتبار للحاضرة الإسلامية وتعزيز اقتصاد يتوافق مع المبادئ الإسلامية؟ بعد إحدى عشر سنة من الحكم الفردي والمطلق على غرار ملوك ألف ليلة وليلة، هل سيدرك بومدين في النهاية بأن الحكم لا يعني شيئا عندما لا يكون في خدمة مثل أعلى يتقاسمه الشعب؟

فهل سيكون الميثاق الجديد المرتقب نقطة انطلاق لعهد جديد؟ كلّنا نتذكر تصريح بومدين الرسمي: «سوف يفتح النقاش أمام كل الآراء وكل الأفكار في ظل الاحترام التامّ».

رأينا آنذاك كيف تجسّد هذا التصريح على أرض الواقع. من الواضح أنّ بومدين كان يعتقد بأن الجزائر قد أذعنت كلّها، بعد أحد عشر عاما من الحكم وتأجيج العقول وتكييف ظروف الشعب اعتمادا على الراديو والتلفزيون، للحكم الفردي والثورة الستالينية.

لكنه سرعان ما أدرك بأن الانتصارات التي حقّقها ضدّ الشعب كانت انتصارات ظرفية. عندئذ، غيّر رأيه وأخذ يغشّ تماما كالاستعمار بالأمس.

كيف كان يمكن لنظام احتيالي أن يلجأ إلى مزايا الاقتراع العامّ دون أن يخسر اللعبة؟ إن الحكم الفردي، وهو يدّعي ريّاه منح الكلمة للشعب، لا يقوم إلا بفرض تصوراته الخاصة عن طريق الغش والاحتيال.

---

1. فلاديمير دوديتساف «الإنسان لا يعيش على الخبز فقط» L'homme ne vit pas seulement du pain جوبار - باريس - 1957.

كلّ شيء جرى، كما لو كان بومدين، مدبّر الانقلاب ضد بن بلة، قد قام بانقلاب آخر ضدّ الشعب نفسه. وضع الميثاق والدستور على مقاسه. ارتدى هذا اللباس وواصل الحكم الفردي.

*

الحكم مفسد، وإلا لكان قد أدرك بأن الشعب كان بائسا كلّ البؤس لضياع حقه في التساؤل والتصرّف في مصيره. فهل يمكن العودة إلى الشرعية الجمهورية وإلى احترام إرادة الشعب بفضل الأدوات الديمقراطية؟

لم تخرج الجزائر من النفق بعد. منذ 1962، ما فتئت تتخبّط في تناقضات يتعذّر التغلب عليها. وأصبحنا نعيش في حالة من الظرفية الخطيرة. الميثاق ليس ميثاقا، والدستور ليس دستورا. والحكومة ليست حكومة، والمجلس ليس مجلسا وطنيا. بحيث تم تزوير كلّ شيء وتزييفه. القلق الشعبي يتنامى باستمرار. وحسبنا شرارة واحدة حتى تأتي الحرائق مرة أخرى على بلدنا البائس.

في كلّ مرّة، تطالعنا يومية «المجاهد»، لسان حال النظام، بأخبار سارّة وتقول لنا «كل شيء على أحسن ما يرام». ولا تخاطبنا إلا للحديث عن صداقتنا مع أنغولا الشيوعية ومع كوبا الماركسية ومع البلدان الثورية. ولا تحدّثنا بالمقابل إلا عن الرجعيين وأعوان الامبريالية والبورجوازية والمناضلين الملتزمين وأشياء كثيرة كهذه. شخصيا، لا أومن بشيء من هذا. فضلا عن ذلك، هناك سؤال يطرح نفسه: من يستطيع أن يحكم بين «البورجوازيين» و«الثوريين» إن لم يكن الشعب نفسه؟ إن لم يقرّر الشعب بنفسه، فمن يستطيع بدلا منه وبموضوعية؟

على كلّ جزائري واع إذن أن يجيب على هذا السؤال.

ثانيا

من أجل جزائر جمهورية

عندما يدلي المرء بأي شهادة أمام مسؤولي بلد ما، يجب أن يكون الصدق القيمة الوحيدة للشهادة. ﴿وإن كنتم على سفر ولم تجدوا كاتبا فرهان مقبوضة فإن أمن بعضكم بعضا فليؤدّ الذي اؤتمن أمانته وليتّق الله ربّه ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثم قلبه والله بما تعملون عليم﴾
سورة البقرة - الآية 283

بهذه المناسبة، أودّ أن أقول ليس لي ما أخفيه. أقول الشيء أؤمن به فقط.

أنا لا أنتمي إلى صنف أولئك المصابين بـ «هستيريا الوطنية» ولا إلى صنف أولئك الذين يمارسون «وطنية الجهاز الهضمي». قبل أن أكون جزائريا، إنني مسلم. الوطنية تخضع لصدفة المولد. أما الإيمان الديني فإنه يتطلب صراعا داخليا والشك والرضا الواعي والعقلاني.

لا يبدو بأن شعبنا قد كان على استعداد للعيش في زمانه. في 1962، كان قد انتزع استقلاله منذ وقت قصير فقط. وترك حريته تضيع منه. استسلم، كأنه عصفور مدجّن، ليجد نفسه مسجونا في قفصه من قبل «سلالة» لم تجلب معها إلا تشيّعا شبه ثوري.

في 1965، جاءت سلالة جديدة ادّعت أنها من نفس التشيّع لتطرد الأولى. وعزّزت قضبان القفص وواصلت سيطرتها على دواليب الحكم.

لا داعي للأوهام. التغيير والتجديد لا يأتيان إلا من مؤسسات جمهورية وليبرالية التي بفضلها ستنكسر قيود القفص وسيتحرّر شعبنا ليطير بأجنحته الخاصة.

عندئذ، ستكتب الجزائر على المشكلات الحقيقية: الخروج من ظلمات العصور الوسطى وتبعاتها، ولوج العصور الحديثة بفضل الثقافة والعلوم العصرية والتقنية، والتسامح للتفادي العودة إلى النظم القمعية حيثما أنت، بناء مغرب موحّد يستطيع أن يبلور رؤية أفضل لمشكلات العالم وأن يكسب تأييدا جماهيريا أكبر على المستوى العالمي.

في أوت 1954، كنت في باريس، عند استقبالي من قبل السيد فرانسوا ميتران، طلبت منه أن يفعل شيئا من أجل تجنب الأسوأ. سألني بدوره: «ماذا يمكننا أن نفعل؟» = «استشارة شعبنا من خلال انتخابات حرّة»، قلت له ردًا على سؤاله.

إنه نفس المطلب الذي أتوجّه به اليوم أيضا بشكل رسمي إلى «السادة» الجدد الذين يحكموننا. لا أحد، ولا تكتل ولا أي حزب يستطيع أن يحلّ محل الإرادة العامة التي يجب أن يتم التعبير عنها بكل حرية. لهذا يجب علينا بداية، استشارة الشعب.

بهذا الشأن، يجب انتخاب مجلس وطني تأسيسي عن طريق الاقتراع العام الحرّ والمباشر. سوف تتمكن كل الآراء من التعبير عن نفسها. ويتمكن الشعب من اختيار ممثليه في هذا المجلس التأسيسي.

لا ننسى بأن الجزائر تحرّرت بنفسها لأوّل مرّة. لذا، يعدّ الاختيار المشترك للدستور عين حقّ وهو مستحقّ على أكثر من صعيد.

من جهتي، أقترح على المجلس التأسيسي المنتخب بهذا الشكل أن يستشير الشعب مرة أخرى وأن يطلب منه إعداد شبه «سجلات مطالب» (cahier des doléances)، على غرار سجلات الأحوال العامة لعام 1789 في فرنسا، حيث يقوم كل شخص بقيد أفكاره الخاصة حول مصير البلاد. وسوف يقوم الجميع من رجال ونساء وطلبة وعمال وتجار وفلاحين، ومن مختلف المدن والقرى والبوادي، بإرسال سجلات مطالبهم إلى المجلس في ظرف ستة أشهر. وسوف يدرس هذه السجلات بعناية أعضاء المجلس التأسيسي الذين تسهل مهمتهم بفضل ذلك.

هذه المشاورات ضرورية لشعب لا يزال يحمل صدمات لأكثر من سبع سنوات من التضحيات والخوف والصمت على القسوة والقهر. إنّ هذا الشعب

في حاجة إلى الترفيه عن نفسه والتعبير عن آرائه والمطالبة بحقوقه والبوح بما يختلج في نفسه.

فمن توجّه إلى المسلمين، منذ الخلفاء الراشدين الأوائل المنتخبين، وطلب منهم أن يعبّروا عن تصوراتهم للدولة وعن المؤسسات والقوانين؟

الديمقراطية تعلّم متواصل وصبر على الانضباط الذاتي. لهذه الديمقراطية بالذات ينبغي تهيئة الجزائر.

لقد ولّى عهد المجاعة في شمال أفريقيا. وحسبنا أن ندير الحكم في العمق باتجاه الجماهير المحرومة. وبالمقابل، نحن نعيش، فقراء وأغنياء، مجاعة في ممارسة حريتنا وكرامتنا. كفانا الحياة تحت النظام الأبوي. لكلّ منّا شيء يقوله. ويجب أن يكون في مقدور كل فرد أن يقول ما يريد دون خشية الزجّ به السجن.

الماركسيون أنفسهم الذين كانوا لوقت طويل من أنصار التسلّط اختاروا الحرية. في « بيانه الخاصّ بالحريات»، سلم الأمين العام للحزب الشيوعي الفرنسي، السيد جورج مارشي، في النهاية، بأنّ لا اشتراكية دون حرية. وتضمّن بيانه النقاط الخمس الآتية:

1 -الحريات الفردية والجماعية.

2 -الحقوق الاقتصادية والاجتماعية، حيث يمكننا أن نقرأ المقطع الآتي: «لا ينبغي ذكر الخيارات السياسية والنقابية والفلسفية أو الدينية لأي أجير أو موظف ضمن ملفه»).

3 -الحقّ في الثقافة والإعلام.

4 -الحقوق السياسية والمؤسسات الديمقراطية، حيث يمكننا أن نقرأ ما يأتي: «احترام حكم الاقتراع العام ضرورة حتمية لأيّ حكومة».

5 -الضمانات القضائية[1].

هذا يدلّ دلالة واضحة على التطوّر الكبير الذي أكّده مؤخرا البيان المشترك للحزبين الاشتراكيين الإيطالي والفرنسي.

[1] يومية لوموند/ .العالم/ Le Monde العدد 17 مايو 1975.

في مؤتمره الأخير، ذهب الحزب الشيوعي الفرنسي أبعد من ذلك وهو يعلن الطلاق مع ديكتاتورية البروليتاريا: «سوف تتشكل السلطة، كما قال الأمين العام، وتتصرّف على أساس الاختيار الحرّ الذي يتمّ التعبير عنه من خلال الاقتراع العامّ». ثم أردف يقول: «وعلى عكس ذلك، لا يمكن «للديكتاتورية» إلا أن تقوم آليا باستحضار النظم الفاشية لهتلر وموسوليني وسالازار وفرانكو، أي انتفاء الديمقراطية نفسها.»

لو أضاف جورج مارشي اسم ستالين إلى قائمة الديكتاتوريين لكانت إضافته صائبة تماما.

يشارك الشيوعيون الإيطاليون والأسبان والبلجيكيون الحزب الشيوعي الفرنسي هذا الموقف الجديد. لقد ابتعدت الشيوعية الأوروبية عن الاتحاد السوفياتي الذي يزال حتى يومنا هذا نموذج البلدان الاشتراكية.

فهل ينتهي الشيوعيون الجزائريون إلى اعتماد ليبرالية جيرانهم؟ وهل سينتهي بهم الأمر إلى احترام الاقتراع العام؟ هذا أملنا ورجاؤنا.

لم يمض وقت طويل على ميلاد الجزائر في الحياة العامة كوحدة وطنية ووطن إقليمي. ومن ثمّ، فشعبنا لا يزال يفتقر إلى تقاليد الدولة. وعلينا أن نبدع ونأتي بالجديد انطلاقا من المؤسسات الموروثة من عهد الحكم العثماني والاستعمار الفرنسي.

تتمثل أصالة هذا الإبداع في الارتقاء بشعبنا إلى مصافّ أمّة ذات سيادة. فإن لم نجتثّ من وعينا ذكريات ما لاقيناه في الماضي من استرقاق من سلالة عبد الواد والأتراك والفرنسيين،فإنها قد تشل كل جهود الحاضر. ولن يكون ثمّة إقلاع جديد إلا بفضل تصرّف كل مواطن جزائري بحرية وإذعانه بطواعية لقانون الأغلبية.

أجدادي خدموا الفاطميين وبني حمّاد. وواجهوا البدو وبني هلال. وجدّي خضع لسلطة الأتراك. وأنا قضيت أكبر جزء من حياتي تحت الهيمنة الاستعمارية. فهل سيعرف ابني نظاما تسوده الحرية؟

من أجله ومن أجل جيله، رجالا ونساء، أضع اليوم هذا «المنهاج» أملا في أن يتمكن في يوم من الأيام مجلس تأسيسي وطني يتمّ انتخابه من قبل الشعب بحرية من دراسته وانتقاده وربّما الاحتفاظ ببعض الأشياء منه.

اليوم الذي سوف يدرك فيه الحكم الفردي، كرها، بأن «منطق الجميع» أفضل من «منطق السلطة» ليس بعيدا.

عندئذ، سيفهم لامحالة انه يجب عليه العودة الى احترام الإرادة العامة وسيادة الشعب، الأساس الشرعي والوحيد للجمهورية.

هكذا، لن نرى شعار «من الشعب وإلى الشعب» مجرّد خيال.

مساواة الجميع أمام القانون

الإسلام بطبيعته دين مساواة. إذ غالبا ما يقوم النظام الجزائري بمحاكمة الامبريالية العالمية، ولاسيما امبريالية الولايات المتحدة الأمريكية، وفي بعض الأحيان امبريالية أوروبا الغربية. لكنه ينسى امبرياليته الخاصة التي يمارسها على جماهير الشعب العريضة التي ينظر إليها كمواطنين من الدرجة الثانية. وفي ظل ذلك، لن يتغيّر وجه الجزائر إلا إذا توفّر الدستور والقوانين على الشروط الآتية:

يجب ضمان أمن المواطنين وحريتهم ومساواة الجميع أمام القانون،

يجب أن يضمن القانون الحريات الفردية الأساسية وحرية التعبير والتجمع وحرية المعتقد والرأي...

يجب أن يخضع الدين لمجالس المؤمنين وإدارتهم. ولا ينبغي أن يكون بأي حال من الأحوال بين يدي الحكومة كأداة سلطة،

يجب أن يحظى الإسلام واليهودية والمسيحية بدعم الدولة والاحترام. ومن أجل تحسين العلاقات بين المسيحية والإسلام، ينبغي للجزائر أن تفتح سفارة لها لدى الفاتيكان Saint-Siège.

يجب الاعتراف بالحق النقابي لكل العمال في إطار القانون. لا لديكتاتورية الدولة ولا للفوضى الاجتماعية،

يجب أن تشكّل الأسرة التي ترعى أمن الطفل وصحته الخلية الاجتماعية القاعدية. وبناء على ذلك، يجب أن تحظى بحماية السلطات العمومية ودعمها.

يجب توجيه المنظومة التربوية نحو صنع «رجال جدد». كما ينبغي للتصرفات الموروثة أن تزول وأن يتم استئصال مخلفات القيود الاستعمارية من الوعي الجماعي الشعبي. وسوف يجسّد الطفل صورة أوّلية لمواطن الغد المسؤول الذي ينعم بالكرامة.

لسوء الحظ، الحزب الواحد لا يساعد الإنسان، بحكم طبيعته، على الازدهار التام!

ينبغي للدستور أن يضمن الفصل بين السلطات الثلاث، بين السلطة التشريعية والسلطة التنفيذية والسلطة القضائية. هذا الفصل عامل من عوامل توازن الدولة والغموض في السلطات يؤدّي حتما إلى التعسّف،

ينبغي للثقافة أن تبرز القيم الأخلاقية والروحية للإسلام مع احترام الفلسفات الأخرى. ويجب أن يكون المجتمع مبنيا على التسامح ولا ينبغي اضطهاد أي شخص بسبب معتقداته.

«الأمن، كما كتب ميشال جوبير[1] Michel Jobert، هو أعظم حلم بالنسبة إلى المستضعفين والمضطهدين، أفرادا أو أمما. إنه حرية التفكير والتصرّف والقرار دون ضغوط أو تهديدات تذكر. والأمن هو دائما احترام أمن الآخرين[2].»

هذه المبادئ العظيمة هي مبادئ الإسلام ومبادئ الشريعة. وعندما تصبح هذه المبادئ الركائز التي ترتكز عليها الدولة، يصبح عندئذ في مقدورنا أن نجنّد شعبنا للعمل بكل حماس. وسوف يستعيد هذا الشعب الوعي بذاته أفرادا وجماعات. وسوف يشيّد مجتمعا خاليا من الأمراء الذين تسلطوا علينا ومن الإقطاعيين والضباط وغيرهم من السماسرة.

1. ميشال جوبير – Michel Jobert هو رجل سياسي فرنسي. كان وزيرا للشؤون الخارجية (1973 – 1974) في عهد رئاسة جورج بومبيدو، وزيرا للتجارة في عهد رئاسة فرانسوا ميتران. واستقال عام 1984.

2. نفس المرجع – ذاكرات المستقبل *Mémoires de l'avenir* دار النشر «غراسي Grasset» – باريس – 1974.

التمسك بالقطاعات الحسّاسة

عندما لا تتوفّر الدولة على العدد الكافي من الإطارات الكفأة، عليها أن توجه ما لديها نحو القطاعات الحسّاسة. فسوء التسيير، مثل الفاكهة الفاسدة التي تفسد كل الحمولة، قد يعيق عجلة الاقتصاد ويشلها تماما.

أرادت السلطة «الثورية»، بكلّ لهفة وتهوّر، احتكار كلّ الأنشطة دون أي تمييز وانتزاعها من الخواص. ففي الميدان الزراعي، كما في الصناعة، ضاعفت عدد التجارب وأرادت أن تكون هي الطبّاخ والمؤوي والحلاق ومربّي المواشي وتاجر الدواجن ومنتج الحليب والبنّاء وموزّع السيارات وقطع الغيار، الخ... وغرقت في التفاصيل ونسيت ما هو أهمّ. وأصبحت أكوام الورق، حظها اليومي، تنتهي إلى سلة المهملات بالأطنان... !

لا يمكن إيقاف النزيف المالي. وعلى الدولة أن تعود، في أسرع وقت ممكن، إلى توزيع المهام توزيعا أفضل مع حصر مهامها في القطاعات الحيوية، مثل النفط والغاز والمناجم والنقل والطرق والمنشآت المائية والمزارع التجريبية والتعليم والصحة العمومية والتدريب المهني، الخ...

لا يتحقّق استقلالنا الاقتصادي إلا من خلال تحسين المردودية. لكن الدولة الاشتراكية تعتقد بأنها غنية لأنها اغتصبت الجميع دون أن تنفق قرشا واحدا. لقد أخطأت وما إن بقي التبذير ديدنها، فإنها لن تستطيع أن تدّخر ولا أن تستثمر شيئا آخر إلا أموال الغاز والنفط. إن الشعور بالانتصار مع الرضا بالنفس ما هو في الحقيقة إلا سراب سرعان ما يتبدّد بمجرد ما تجف آبار النفط.

الويل ثم الويل لأجيال الغد !

تحقيق استقرار الوظيف العمومي

بشكل عام، الجزائريون الذين يختارون الوظيف العمومي لا يطلبون الغنى. ولا يغريهم في ذلك سوى الأمان الذي يوفّره لهم هذا القطاع طوال مسيرتهم المهنية، وبدرجة أقلّ، الرغبة في خدمة الدولة. هؤلاء الإطارات هم عماد الدولة.

ومع ذلك، لم يتم وضع أي قانون أساسي لهم منذ خمس عشرة سنة. وبقي الموظفون تحت رحمة مزاج الوزراء والسلطة معا. ليس هناك أي مقاييس للتوظيف ولا أي جدول للترقية إطلاقا. في الآونة الأخيرة مثلا، وجد اثنا عشر أمينا عاما على مستوى عدد من الوزارات أنفسهم بدون عمل. ويقال إنهم يتقاضون أجورهم منذ عامين كاملين دون القيام بأي شيء. كما يوجد عدد كبير منهم في هذه الوضعية. نعتقد أن الدولة غنية. إذ لا تقوم السلطة بإشعار المعني بالأمر إلا بعد عامين كاملين. وهكذا، فقدت بعض الوزارات وزراءها وأمناءها العامّين. فمن سيقوم بتدريب الوزير على وظيفته؟ ومن سيضمن استمرارية العمل؟

أمّا فيما يتعلق بالشركات الوطنية، فأي تغيير للرئيس المدير العام للشركة لا بدّ أن يصحبه تغيير في الموظفين. خبرة الإطارات القديمة لا تفيد شيئا. ويجب الانطلاق دائما من الصفر والبداية من جديد. بعبارة أخرى، النظام الشمولي هو نظام تعسّفي واستبدادي بحكم طبيعته.

ومع ذلك، ليس الوزراء هم الذين يصنعون الدولة، وإنما هم كبار منفذي الإدارة. إنّه من الضروري إذن ضمان حمايتهم بوضع قانون أساسي لهم يضمن ترقيتهم واستقرارهم. الشباب الذي يختار الوظيف العمومي والتعليم والقضاء لا يفكر في الثراء. ولكنه يفكر في خدمة الدولة. وينبغي لرواتبهم ومعاشاتهم وقوانينهم الأساسية أن تضمن لهم الأمن والكرامة. وإلا فلن يتبقى سوى العمال عديمي الكفاءة لنوظفهم.

من أجل ثورة ريفية ممكنة

في عهد الهيمنة الفرنسية، لم يكن تطوّر الجزائر متكافئا. وبقيت عدّة مناطق كبرى بعيدة كل البعد عن أي تقدم أو رقي. وكان يجب احتضان هذه المناطق وسكانها المحرومين وإخراجهم من العصور الوسطى التي ما زالوا يعيشون فيها.

يمكن إحداث ثورة في هذه الأصقاع. ولهذا الغرض، ينبغي لنا أن نقوم لسنوات طويلة بتصريف بادئة الأسماء الثلاثة بلا كلل أو ملل: تغذية، تعليم، تشييد.

التغذية - من أجل ذلك، يجب تحسين الظروف المعيشية للفلاحين والاحتفاظ بهم، بكل الوسائل، فوق أراضيهم وإيصال التجديد إليهم. لا داعي لنا أن نكرّر ذلك لأن الوقائع تتحدّث عن نفسها: لقد مني الإصلاح الزراعي بفشل ذريع. وأولئك الذين خططوا لهذا الإصلاح جهلاء لا يفقهون شيئا في الزراعة.

الأرض مثل المرأة. علينا أن نحبّها ونتزوجّها لإخصابها. وعندما نسلّمها «للمستفيدين الموظفين» الذين يعاملونها فوق الخصر، فإنها تصبح أرضا بورا شحيحة وعقيمة. مع أن الإنتاج الزراعي يشكل أحد الأهداف الأساسية في أي نظام، حتى عند الشيوعيين أنفسهم. خلال زيارتي إلى بكين في 1960، احتفظت من محادثاتي مع الرئيس ماو تسي تونغ[1] بتوصيات ثلاث، هي كالآتي:

في المجال الاقتصادي، ينبغي للشعب أن يسير على قدمين، قدم الزراعة وقدم الصناعة.

وفي مرحلة أولى، يجب ربط الصناعة بالزراعة. وقبل صناعة السيارات، يجب أن نصنع في البداية المجارف والمعاول والمحاريث والجرّارات والأسمدة. ولكي يعمل الشعب، يجب أن نوفّر له في البداية الغذاء. هذا أمر هام للغاية، بطبيعة الحال، حث الفرد على العمل يأتي قبل استعمال الأدوات الزراعية. وكلما كان في استطاعة الفرد أن يقوم بالعمل اليدوي، وجب تفادي استعمال العتاد الزراعي لأن التقنية يمكن أن تنتظر إلى حين. ولكن يتعذّر ذلك على الأفراد الذين تم اختزالهم في البطالة.

هذه التوصيات لا تتنافى ومبادئ المجتمع الإسلامي. بل يمكننا أن نجني فوائد كبيرة منها. لكن هيهات! لقد أغفلنا ذلك تماما. وقد أغرقنا الزراعة بعتاد زراعي في منتهى التطور مقابل أسعار باهظة واختزلنا أكثر

---

1. ماو تسي تونغ (Mao Tsé Tong) 1893 - 1976. هو رجل دولة صيني وأحد أهمّ مؤسّسي جمهورية الصين الشعبية. تمّ توزيع كتيبه الأحمر الذي شرح فيه أفكاره عبر سائر بلاد الصين وعبر بلدان العالم الثالث.

من مليون فلاح في البطالة وضحّينا بزراعتنا لصالح تصنيع متسرّع، مرتجل وعديم الأطر.

في كلّ شيء، علينا أن نبدأ من البداية. بحيث يمكن أن يكون التغيير فعليا وأن يؤدي إلى إحداث ثورة عميقة شريطة مراعاة طبيعة الشعب وخصوصياته واحترام دينه. كما يمكننا أن نمنح فلاحينا وعمالنا الأرض وأن نمنح وسائل بقائهم بعدا آخر غير بعد البؤس اليومي. ولا يهمّ في مثل هذه الحالة إلا الفعّالية. و«لا يهمّ، كما قال أحد الوزراء الصينيين، أن يكون القط أحمر أو أسود، لكن الأهمّ أنه يصيد الفئران».

إذا كانت الأراضي الجزائرية تموت فلأنها وقعت ضحية نظام ملكية جماعية طبّقه مسؤولون بدون روح مسؤولية عليها. وتم حبسها، مثلها مثل الصناعة، في قوالب قانونية مجحفة للغاية. لكنّ الزراعة، كما هو معروف، تخضع لعوامل عدّة، مثل الأمطار والجفاف والجليد والصقيع إلى غير ذلك من العوامل الطبيعية بقدر ما تخضع لمبادرة الفلاح نفسه. أمّا البيروقراطية فهي الخراب بعينه.

بعد قرن من الاحتلال، نجد في الجزائر ثلاثة أصناف من الفلاحين:

فلاحون تمكنوا من تحسين مستوى ملكيتهم ووسائل معيشتهم،

فلاحون تمسّكوا بالأرض رغم حياة البؤس التي عاشوها،

وفلاحون خسروا كلّ ما يملكون وتم استئصالهم ليتحوّلوا إلى «خماسين» وعمال زراعة أو نزحوا إلى المدن للعمل بها.

الإصلاح يجب أن يمسّ الصنف الأول. كما يجب رفع حجم الملكية حسب قيمة الأرض إلى مساحات معقولة ومربحة. أما بخصوص الأراضي المخصّصة لزراعة الحبوب، فإنه يجب أن تتراوح مساحة المزارع بين 200 و 300 هكتارا، أي من 100 إلى 150 هكتارا تكون صالحة لزراعة الحبوب كلّ سنة. والباقي يخصّص لتربية المواشي والعلف.

الجزائر ليست منطقة «لابوس La Beauce». لأنه يجب أن ننتظر ثلاث سنوات لنحصل على سنة حصاد جيّدة. لكن يمكن أن نعوّض السنوات العجاف بفضل تربية المواشي (الأغنام، الأبقار، الخيول). وبفضلها تستطيع الزراعة أن تواجه الجفاف والجليد.

ثمّة موضوع آخر. السلطة منعت الاستثمار في قطاع الزراعة. هذا خطأ فادح. عندما يستثمر طبيب أو محام أو صيدلي أو تاجر أمواله في الزراعة، فإنه غالبا ما يقوم بذلك على حسابه. وبهذا الشأن، تقول العرب: «المال المكتسب تحت الظل تلتهمه الشمس».

أولئك الذين يستفيدون من هذه الاستثمارات هم بشكل عام الفلاحون أصحاب النفوذ. إنهم أصحاب النهي والأمر ويعملون كما شاؤوا ويمنحون صاحب الأرض ما ارادوا. ومهما يكن من أمر، فالأموال المستثمرة تبقى في الجزائر ولا تذهب إلى سويسرا أو إلى مكان آخر.

فلاحو الصنف الثاني هم أيضا في حاجة إلى مساعدة الدولة لهم. هم أناس شجعان وفلاحون حقيقيون ويجب توزيع أراضيهم لزيادة مردوديتها. ويجب أيضا أن تبنى لهم مساكن لائقة تزوّد بالماء الصالح للشرب ونمكن أولادهم من الذهاب إلى المدرسة. يمكننا أن نصنّف الفلاحين الذين تم انتزاعهم من بيئتهم إلى صنفين، صنف الفلاحين الذين فقدوا أراضيهم بسبب القمار والخمر والمجون. وهؤلاء لا رجاء في استرجاعهم. وصنف آخر من الفلاحين الأقل حظا ووسيلة وهم أهل للكثير من العناية. ومع ذلك، يجب اعتماد مقاييس أكثر صرامة وجدّية في اختيار الأصلح منهم. إنهم قدامى الفلاحين الذين يستطيعون أن يستخلفوا قدماء المستوطنين وأن يتحملوا مسؤولية المستثمرات الفلاحية الموجودة. لكن يجب مع ذلك تعديل القانون الأساسي للتسيير الذاتي وتحريره من قبضة البيروقراطية الطفيلية.

لكي يعود هؤلاء الناس إلى الأرض، ينبغي لملكية هذه الأرض أن تعود إليهم. وعندما يتجمّعون في مجموعات من خمسة فلاحين أو عشرة أو عشرين، حسب أهمية المستثمرة، يمكن عندئذ للدولة أن تمنحهم الاعتمادات وتتركهم يعملون لحسابهم الخاص حسب قدراتهم.

إذا كانت المردودية غير إيجابية وآلت الملكية الخاصة إلى الانهيار، يمكن عندئذ فسخ عقد الإيجار ونقله إلى آخرين. وإذا ازدادت على عكس ذلك غنى وثراء، ينبغي للدولة أن تمنحهم المزيد من الامتيازات الإيجابية.

سوف تستثمر عائدات هذه المستثمرات المؤجّرة في إطار التسيير الذاتي وعائدات الضرائب في المناطق المحرومة أو في الأراضي الزراعية غير المستصلحة. وفي الوقت الحالي، العمال الذين يعملون في مزارع المستوطنين القديمة يجدون ما يسدّون به رمقهم، بينما أولئك الذين يعيشون في المناطق

الداخلية للبلاد يتسوّلون من أجل لقمة عيش. هذا ليس من العدل في شيء. إذ يمكن أن تساهم الأراضي الخصبة في خدمة الأراضي غير الخصبة وتساهم في تمويل استصلاحها.

كما أن السهول الخصبة التي بقيت لوقت طويل في حالة اهمال، مثل أراضي سهل سيدي عقبة (100.000 هكتار) وسهل بسكرة (100.000 هكتار) وسهل بوسعادة - الجلفة (50.000 هكتار) وسهل البيض - عين الصفراء (50.000 هكتار)، ما زالت تنتظر رؤوس الأموال وسواعد العمال حتى تتحوّل إلى «كاليفورنيا» حقيقية. ويمكن أن تصبح على الأقل مثل أراضي أغادير في المغرب.

على أطراف الصحراء المترامية، يمكن زراعة الكلأ والبرسيم على سبيل المثال لوفرة الشمس والماء. وعندها تصبح تربية المواشي ممكنة. في جنوب خط تيارت وبرج بوعريريج وسطيف وعين البيضاء، يمكن أن نستنسخ كما فعلوا في الأرجنتين، سلالة من مواشي اللحوم. وقد تسمح سلالة الأبقار المهجّنة من سلالة منطقة «شارولي» وسلالة «أبردين آنغرس» والمجمّعة في حظائر من عشرة هكتارات بتوفير اللحوم حتى إلى أوروبا.

في مجال الحمضيات، قد يكون لإدخال زراعة أشجار الأفوكاتو Avocatier إلى الجزائر مردودية كبيرة. وقد تعوض أشجار الكليمونتين والبرتقال التي انتشرت بكثرة حول حوض البحر المتوسط. في مرحلة أولى، سوف ينتهي الفلاحون المؤتمنون على مستقبلهم إلى التجمّع في تعاونيات زراعية وسوف يتشاركون عندئذ في وسائل الإنتاج لاستعمالها بعقلانية. وسوف ينسّقون تسويق منتجاتهم على مستوى تعاونيات تجارية من أجل تقليص أموال الاستثمار وسعر التكلفة إلى حدّها الأدنى. وسوف ينتهي هذا المسار مع مرور الزمن وطول التجربة إلى فرض نفسه كتطور تدرّجي حتمي.

أقول إن انطلاق الجزائر الجديدة لا يتم إلا بفضل الزراعة. وينبغي لنا أن نوظّف كل شيء من أجل تحسين الإنتاج الزراعي كما ونوعا. الزراعة توفّر لنا ثروات متجدّدة. وعلينا إيجاد أنجع السبل والوسائل لضمان تغطية حاجاتنا الغذائية من إنتاجنا الخاص. وسوف يتجسّد ذلك في توفير كميات كبيرة من العملة الصعبة. لنتعلّم الحساب والاقتصاد. ان هذه الاشتراكية وليدة السلالة الحاكمة وليست قرآنا ثانيا.

إيقاف النزوح الريفي

يعدّ نزوح الفلاحين إلى المدن من آثار «الثورة الزراعية». غير أن هؤلاء الفلاحين قد صمدوا في وجه نموّ الأراضي الاستعمارية وتمسّكوا بالأرض طوال قرن من الزمن رغم كثرة الصعوبات. في مثل هذه الظروف، استطاعوا طوال حرب الجزائر توفير الغذاء للمجاهدين وإيوائهم. وجاء الاستقلال ليجرّدهم من أراضيهم ويحشدهم في أحياء القصدير حول المدن الكبرى. وجدوا العمل في المصانع، لكن ليس هناك من سيخلفهم في الريف لقد تحوّلت إلى أرض خالية وقاحلة تماما.

هذه السياسة ضرب من الضلال. يجب معالجة الأمور في أقرب الآجال. حاليا، هناك ظاهرة اجتماعية قد تكلف الجزائر غاليا. الفلاحون هم من يصنعون بلدا وشعبا وليس سكان الحضر. بلا فلاحين لا وجود للأمة. يولد التمدّن وحبّ الوطن تحت حوافر الحصان والثور وخلف ألثام المحراث وتحت ظلال الأشجار في البساتين التي تتعاقب الأجيال على خدمتها والاعتناء بها.

حماية الأرض، تنمية الغابات وبناء السدود

لا يمكن للزراعة أن تتحسّن دون حماية الأرض التي تتهدّدها آفتان، آفة الانجراف وآفة الجفاف. هذه مهمّة السلطات العمومية والتخطيط. إذ تتطلّب هذه العملية نفسا طويلا كل سنة، تضيع آلاف الهكتارات من الأراضي الصالحة للزراعة. وقد أدّى إتلاف الغابات إلى تفاقم الأوضاع. من هنا تبرز ضرورة منح مصلحة استصلاح الأراضي الاعتمادات الكافية من أجل شنّ حملة على هذه المخاطر التي تهدّد البلاد والعباد.

عمليا، يجب أن تتم إعادة تشجير الأراضي تبعا لمتطلّبات الصناعات الأخرى، مثل صناعة الورق وصناعة خشب البناء. ويكفي لأجل ذلك اختيار الشتائل الملائمة. كما يتعيّن على سكان البوادي غرس الأشجار بدلا من حرث الأرض وتدريبهم على ذلك. وعندما يمسّ الانحدار الأرض، يسهل انجرافها.

قد تصبح توعية سكان البوادي أسهل لو توصلوا إلى الاقتناع بأن الغابة هي مصدر عيشهم. وبلا شك، غاباتنا لا تضاهي غابات أوروبا ولا غابات أفريقيا السمراء. لكنها غابات قابلة مع ذلك للاستغلال. وفيما عدا الفلين يمكن للبلوط الأخضر وغيره من الأشجار الأخرى أن يوفر خشب البناء والأثاث. لكن كم من منشرة أقيمت في شبه جزيرة القل وجيجل والإيدوغ والونشريس؟

من جهة أخرى، أهملت صناعة الفليون. ومن أجل مصالحة سكان الجبال مع الغابة، يجب العمل على توعيتهم بأهمية الحفاظ عليها وإلا تصرفوا تصرفات معادية لها. ولا أدل على ذلك من الحرائق التي تأتي على الأخضر واليابس. أما الجفاف فإنه يشكل باستمرار خطرا كبيرا. في الجزائر، الأمطار تسقط بما فيه الكفاية. ولكن بدون انتظام أو تكافؤ. ومن شهر مايو إلى شهر سبتمبر، قد لا تسقط قطرة واحدة من المطر ببلادنا. ومن هنا، يبدو من الضرورة بمكان العمل على تخزين المياه وتسوية مجاري الأنهار والوديان. بعد «بول دولوفريي»[1] ومخطط قسنطينة، الذي أعلنه الجنرال دي غول، أعلن الحكم في الجزائر مشروع بناء ألف قرية.

في البداية، يجب الحديث عن ألف سد. إذ يعد سقي الأراضي الجافة وتزويد المدن والقرى بمياه الشرب من أولويات الإنجازات في الجزائر. أليس الماء شريان الحياة؟

غير أن قرانا ومدننا لا تزال بعد خمس عشرة سنة من الاستقلال تفتقر إلى الماء ولا تزال أنهارنا من جهتها تجرف، في بعض الفترات من السنة، سيولا من مياه الأمطار الوحلية إلى البحر.

فليعلن الحكم الثوري الحرب على الجفاف ويزودنا بالماء الذي نحن في أمس الحاجة إليه. في ديسمبر ١٩٧٧، نقلت يومية «المجاهد» الناطقة بالفرنسية في تقرير لها بأن مستشفى تيارت كان يفتقر تماما إلى الماء وكان

---

1. بول دولوفريي Paul Delouvrier – من أجل تنفيذ مخطط قسنطينة، عينه دي غول في بداية شهر أكتوبر 1958 مفوضا عاما للحكومة الفرنسية في الجزائر. وكان يرمي هذا المخطط إلى تغيير ظروف معيشة السكان، ولاسيما المحرومين منهم. وكان يشمل كل الميادين، الصناعة الثقيلة والخفيفة والزراعة وحماية الأراضي واستصلاحها والري وبناء الطرق والموانئ والسكن والتعليم والنشاط الاجتماعي، الخ

الموظفون والممرّضات هم من يجلبون في الدّلاء الماء الضروري للمرضى ومصالح المستشفى المختلفة. وتستعمل فيها أحواض الحمّام كخزّانات لتخزين الماء. هذه فضيحة كبرى وعودة إلى التخلّف وإلى عادات العصور الوسطى. حان الوقت أن يقوم الحكم بتشخيص المشكلات وأن يشرع في معالجة الطارئ منها.

تعاونيات ريفية لضمان الغذاء والكساء

يحتاج عمّال المصانع وعمّال الأرض إلى ديماغوجية أقلّ وإلى إنجازات أكثر. يمكن للجميع أن يشاهدوا على الشاشة عمّالا، مثل القطيع، يتقاضون فوائد المستثمرات الفلاحية «الاشتراكية».هنا، سؤال أوّل يطرح نفسه: لم كلّ هذا الاستعراض؟ لكلّ الناس كرامتهم وكبرياؤهم. إن كانوا قد ربحوا هذا المال، فبإمكانهم أن يقبضوه سرّا مثل أي مكاسب أخرى. وإن لم يربحوه، يمكن للدولة أن تتصدّق عليهم دون أي تشهير ودون أن يعرف أحد.

تثير الصوّر المعروضة الكثير من الحزن والاشمئزاز. إذ نشاهد عمالا قابعين، كالمنبوذين، ينتظرون النوايا الحسنة لأسيادهم. وبالمقابل، رجال من عالم آخر بلباسهم الأنيق ورباطات العنق، في حالة من الزهو والرضا بالنفس. إنهم رجال الإدارة والجيش والحزب والنقابات. وما بين هؤلاء «الأعيان» والعمال، هناك نفس المسافة التي كانت توجد بين «المستعمرين» و «الأهالي».

لمعالجة هذه الوضعية، لا بدّ من بذل الكثير من الجهود. يمكن مثلا لهؤلاء «السادة الجدد» أن يستحدثوا تعاونيات لإنتاج الغذاء والكساء التي يستطيع أن يتزوّد منها العمال بأسعار زهيدة. ويمكنهم أن يفصّلوا لهم ملابس على المقاس ويمكنهم أن يعتنوا بأبنائهم وبناء مدارس ريفية لهم، الخ... تتحمّل الدولة نفقات غير مجدية تماما. ولو نظرنا عن كثب للأشياء، لوجدنا بأن الاشتراكية الجزائرية هي أشبه بمستعمرة جديدة أكثر منها بأي شيء آخر.

ترقية طبّ ريفي

يجب وقاية الفلاح وعامل الزراعة من الأمراض كوقايته من الجوع والبرد بالدرجة نفسها. في السابق، استحدث الاحتلال الفرنسي لصالح الريف ثلاثة أصناف من الطبّ الريفي: طبيب الاحتلال ومساعده، المساعد الطبي، الطبيب البلدي والطبيب المدرسي. لكن يمكننا أن نفعل أحسن من ذلك لو استحدثنا سلكا لأطباء الريف ونظمنا البلاد في شكل دوائر طبية من واحدة لكل 15.000 نسمة.

يكون على رأس كل دائرة طبية طبيب وقابلة وممرّض وممرّضة متخصّصة. ويجب تزويد الطبيب بكلّ الأجهزة حتى يقوم بعمله الطبي في ظروف ملائمة، كالسكن والنقل وراتب جيد. أيّ طبّ ناجع يبدأ مع الطفولة. إذ ينبغي للطفل أن يتلقّى، منذ ولادته، كلّ العلاجات الأوّلية الضرورية لوقايته من الأمراض. وفي مثل هذه الظروف، يمكن «إعادة إحياء» السلالة وتفادي الأمراض المتوطنة.

التصنيع

تشكّل الصناعة العامل الثالث من عوامل التغيير. في هذا المجال، السلطة الثورية أخطأت الخيار. فمسار التنمية الاقتصادية الذي شرع فيه والذي منح الصناعة الأولوية على حساب الزراعة، قد كان خيارا محلّ جدال على الأقل.

يقتضي التصنيع السريع، كما شرع فيه، شراء كميات ضخمة من التجهيزات والسلع الباهظة. وكما رأينا ذلك، لا بدّ أن يترتب على هذا التصنيع اللجوء إلى تصدير النفط والغاز بكثافة كبيرة من أجل تغطية استيراد المصانع «مع المفتاح في اليد». هذه السياسة التي لا تشبه لا سياسة اليابانيين ولا سياسة الصينيين تؤدي على الفور إلى هدر حجم الثروات غير المتجدّدة وإلى نفادها على المدى البعيد. إن لم يتمّ تصحيح هذه السياسة، فإننا سنضطرّ بعد عقدين من الزمن إلى شراء محطات لإنتاج الطاقة الذرية الضرورية للمصانع التي

نشتريها اليوم من عائدات النفط والغاز. ومن ثمّ، فقد أضحت مراجعة بعض التصورات أمرا ملحّا للغاية.

إنه من الخطإ كذلك أن نسمح بإقامة وحدات صناعية في المتيجة – اسم لسهل زراعي خصب – وبجوار الجزائر العاصمة. فباعتبارها أرضا زراعية بامتياز، على المتيجة أن تحقّق اكتفاءها الذاتي وعلى الصناعة أن تساهم في تغيير الحياة في الأراضي القاحلة. ومن باب الحيطة أيضا، يجب بناء المصانع في منأى من المخاطر التي قد تأتي من البحر.

باختصار،لا ينبغي للتغيير أن يقتصر على منطقة دون أخرى. إنه شيء متكامل لا يتجزّأ. ويجب أن يقوم على فكرتين أساسيتين:

باتفاق سكّان الريف مع سكّان الحضر، يجب أن تؤدّي التنمية الاقتصادية المعتمدة إلى ازدهارهما معا. غير أن السكوت الذي فرض على مجتمعنا منذ خمس عشرة سنة قد أدّى به إلى الشعور بحالة من الانقباض والاستياء الشديد.

لبعث الأمل في أغلبية السكّان، يجب أن تشكّل هذه التنمية نواة صلبة حتى تساعدهم على تحقيق أحلامهم في السعادة على أرض الواقع.

التجارة للتجّار

ان لم تعتمد الدولة على خرافات الماركسية الطوباوية، فيجب عليها أن تنظّم التجارة بالاتفاق مع التجار. ولا ينبغي لها أن تحتفظ في ذلك إلا بالرقابة.

في 1940، باتت الجزائر مهدّدة بشلل تجارتها التام من جرّاء احتلال فرنسا من طرف الألمان. وقد نجت من هذه الكارثة بفضل تشكيل لجان للتجّار كانت تقوم بالمشتريات على مستوى الغرف التجارية مع توجيه حاجات البلاد الضرورية وجهة المصلحة العامّة. وكان التجّار يقومون بتمويلها بأنفسهم دون أي تدخّل من قبل مصالح المالية العمومية. وكان لكل قطاع لجنته الخاصة به، على غرار قطاع النسيج والمواد المعروفة بالمواد الاستعمارية والمواد الغذائية وقطع الغيار، الخ...

من جهة أخرى، كان مندوب الإدارة يقيم هامش الربح الخاضع للضريبة. وكانت الدولة تحقق أرباحا طائلة من ناحيتين، فمن ناحية هي لا تستثمر ومن ناحية أخرى تقوم بجني الضرائب. لكل حرفته. فعندما يتعاطى الوزراء، من خلال الشركات الوطنية، التجارة، يؤدي هذا إلى ازدحام ميناء الجزائر بالبضائع القابلة للتلف التي لا يطلبها أحد إلا عندما ترمى إلى البحر بعد فسادها ! ويكفي النزول إلى الأرصفة لمعرفة حجم الكارثة.

التاجر لا يقتصد إلا في أمواله الخاصة. إذ قلما يكترث المدير العام للشركة الوطنية، وهو ينفق المال العام بلا حساب، بالربح والخسارة. ما يحدث نزيفا ماليا حادًا من الصعب التحكم فيه. فالفوضى والتبذير هما ما يستنزف أموال التجارة الجزائرية.

إعادة هيكلة بنية الجزائر العمرانية عاصمة للجزائر الجزائرية

يشكل البناء أحد جوانب التغيير. للبناء في الريف، يتعين أن نقوم بدراسة نماذج السكن التي تناسب عاداتنا والأسر الكبيرة. والبناء في المدن لا يحل أزمة السكن. إنها حلقة مفرغة. النزوح من الريف إلى المدينة هو من الحدّة بحيث كلما زاد البناء أصبح من الضروري تكثيف وتيرة البناء. وبمجرد ما يتم هدم الأحياء القصديرية، يعاد بناؤها لتنمو من جديد. لذا فالحل يكمن في تحقيق استقرار سكان الريف على أراضيهم. ويجب لأجل ذلك هدم الأكواخ واستبدالها بمساكن لائقة.

من البديهي أن هذا الوضع يتطلب معالجة مشكلات أخرى، مثل مشكلة بناء المدارس للأطفال وإدخال ماء الشرب إلى المنازل وضمان النظافة للجميع. وعلى الدولة توفير كل هذه الظروف.

بشأن البناء بالذات، سبق أن اقترحت على بن بلة وأنا على رأس المجلس الوطني التأسيسي بناء عاصمة جديدة. وبالفعل،إنني أعتقد بأن «الجزائر الجزائرية»لم تعد جزائر الأتراك والفرنسيين. الجزائر مدينة دخلت التاريخ مع القراصنة الأتراك في البحر المتوسط. إنها مدينة تقع خارج المركز وتبعد كثيرا

عن سكان المناطق الداخلية. أكسبت الجزائر الفرنسية هذه المدينة نموا كبيرا لأن البحر كان يشكل في نظرها واجهة لها. ولان العدو كان في الداخل. وبعد تنمية زراعة الكروم في سهل المتيجة، تحوّلت مدينة الجزائر إلى مدينة لإنتاج الخمور.

بالنسبة لنا، المشكلة تختلف تماما. أولا، الجزائر هي مدينة غير منيعة، ولا يمكن حمايتها من أي عدوّ قد يأتي من البحر. وإذا ما تم الاستيلاء عليها، في حالة الحرب، سوف يتم قطع رأس الجزائر عن جسدها تماما. وانطلاقا من هذا المنظور، يتعيّن فصل العاصمة عن البحر بسلسلة جبال التلّ. ويجب بناء عاصمة حديثة وراء منطقة «السكامودي Sakamoudi» ، داخل المثلث الواقع بين عين بسام والمسيلة وسور الغزلان. وقد تكون هذه العاصمة من ناحية أخرى عاصمة لتربية الأغنام وزراعة الحبوب وأشجار التين والزيتون والنخيل. وقد يكون نفوذ السكان إليها أيسر بكثير. كما يمكن أن تشكل نقطة انطلاق لشبكة جديدة من الطرق السيارة وخطوط السكة الحديدية.

لإعادة وضع أسس جديدة للبلاد، حسبنا التحلّي بالإيمان والهمّة. لأن الجزائر الجزائرية تستحقّ منّا حسن النوايا وكلّ الطاقات الحيوية وتفاني المواطنين ونزاهتهم. لشبابنا حظوظ استثنائية حتى يعيش حرّا في بلد حرّ. إن كان يرغب في ذلك، فإنه يستطيع أن يصنع الجزائر كما يشاء.

فما السبيل إلى تمويل مثل هذا البرنامج؟ بفضل التنازل في كلّ ملكية لصالح المستأجرين عن الملكية المبنية التي تصبح شاغرة إثر رحيل الأوروبيين المكثّف. ويكفي لهذا الغرض، تحويل الإيجار الحالي إلى إيجار بيع مع منح قدامى المجاهدين والمعوزين الأسبقية. وقد تتخلّص الولايات بهذا الشكل من أعباء تسيير هذه الأملاك الذي شغلها منذ 1962 عمّا هو أهمّ. وفي الوقت نفسه، قد تنقذ هذه العملية البناءات التي تزداد تصدّعا وتدهورا يوما بعد يوم وتتحوّل مدينة الجزائر إلى قمامة ضخمة للنفايات والشوارع إلى أوحال. في هذه الحالة، لا أحد يتحمّل المسؤولية عن أي شيء. لكن قد تتغيّر الأوضاع لو تولّى كلّ مالك صيانة مسكنه وأمنه.

مهما يكن من أمر، فالنظام حاليا لا يقوم إلا على المحاباة. والولاّة يوزّعون الشقق على «أخلاّئهم» ووجهاء النظام. والأمر سواء بالنسبة إلى رخصة البناء. لقد اختفت في المدن الكبرى كل الساحات العامة. ولم تهيأ

أي حديقة للأطفال ولا أي ساحة ولا أي حديقة عامة في ربوع الجزائر منذ الاستقلال.

يقال إن المساحات الخضراء هي رئة المدينة. ويجب الاعتقاد بأن مدن الجزائر الكبرى محكوم عليها بالاختناق وسط اكتظاظ السكان وتراكم الأوساخ.

للخروج من العصور الوسطى
تصوّر تعليم راق

قد يكون ربط قاطرة الجزائر بقطار العلوم الحديثة أحسن الأعمال التي تعود عليها بالخير الكثير. غير أن المجتمعات الإسلامية قد غاصت في سبات عميق واكتفت بما حققته من إنجازات علمية خلال القرون الوسطى. ومن جرّاء ذلك، وقعت مرّة أخرى في فخ مناهج علم الكلام الجامدة.

لم يكن للإسلام عالم مثل العالم ديكارت. آن الأوان أن يقوم شبابنا بدراسات جادّة وأن يبذل قصارى جهده لتحصيل العلوم. وعلى الدولة أن توفر لهم الأحياء الجامعية والمكتبات والمخابر وأن ترسلهم في بعثات طلابية إلى أوروبا لطلب العلم لدى كبار سادة العلم. العلماء هم أحسن رأسمال للبلاد.

لا بد لنا أن نخرج من عصور الظلام بأيّ ثمن. العلم هو البعد السادس في الإسلام. وما إن تنافى ديننا مع العلم، فإنه يكفّ أن يكون دينا حقيقيا. وبهذا الشأن قال القرآن الكريم: ﴿**يا معشر الجنّ والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان**﴾ - سورة الرحمن (الآية 33). فعلا، لم يبلغ الإنسان سطح القمر إلا بفضل العلم والعلماء. وكما أضاف الرسول (ﷺ) يقول: «ولتفشوا العلم، ولتجلسوا حتى يعلم من لا يعلم، فإنّ العلم لا يهلك حتى يكون سرّا»، وقال أيضا: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه»...

لا يدعو الأمر إلى الاعتزاز بعدد حاملي شهادة البكالوريا بل إنه من واجبنا أن نولي اهتماما أكبر إلى مسألة تعليم الأمّيين. البعض من حاملي

شهادة البكالوريا هم في مستوى السنة الرابعة. إذ يلتحقون بالكليات وهم في حالة من الضعف بما يجعلهم طلابا ضعاف المستوى وإطارات رديئة. في هذا القطاع بالذات، لا يجدي ذرّ الرماد في العيون شيئا. إننا في حاجة إلى تعليم راق وأساتذة في مستوى مهمتهم النبيلة.

في المجال العلمي على الخصوص،الجدية ضرورة ملحّة. فمن جامعاتنا بالذات يجب أن يأتي التغيير العميق. وفي المدرّجات والمخابر سوف يتدرّب إطاراتنا ومهندسونا وضباطنا وتقنيونا. وينبغي أن يكون لجميع التخصصات نصيبها من الطلبة المتفوّقين، في الرياضيات والفيزياء والكيمياء والعلوم الطبيعية والطبّ والصيدلة والإلكترونيك، الخ... ليطوفوا العالم طولا وعرضا لطلب العلم !

من يفتقد الإحساس بجمال العلوم الدقيقة وفعاليتها ليس أهلا للإنسانية. الطموح لطلابنا أولا ولأمتهم ثانيا دون الوقوع في العصبية وعلى شبابنا الاقتناع بأهمية مهمتهم وثقل مسؤولياتهم. ليرفعوا أنظارهم إلى العلى. في هذه المرحلة من سنّهم، يتساءل المرء عن طريقة بناء أسرته وبلده. إنهم هم من يخاطبهم الشاعر بقوله:

سيناديك صوت ليقول لك كلّ ساعة :
«ماذا فعلت بحياتك وحريتك؟»

الحدّ من سرعة نموّ السكان

قد نخسر المعركة مسبقا في مكافحة الأمية إن واصلت الجزائر إنجاب الأطفال حسب الوتيرة الحالية. إذ تبلغ نسبة الولادات في بلادنا 3.7 ٪ . إنه معدل ضخم جدا. من هنا تبدو مسألة تعليم جماهير الشعب وتوعيتها بهذه المشكلة الخطيرة التي تتحمّل مسؤوليتها ضرورة ملحّة للغاية.

في مؤتمر بوخارست، أوت 1974، عارض مندوبو الجزائر تخطيط أو تباعد الولادات. لم يكن هذا الموقف عقلانيا ولا علميا.

كنت صديقا لبن باديس والشيخ الإبراهيمي. من وجهة نظر الإسلام، يعدّ إيقاف الحمل جريمة وحرام. بمجرّد ما تتجسّد صورة الطفل، يجب

أن يحيا هذا الطفل. ولا يتدخّل الطبّ إلا في حالات المرض التي تتعرّض فيها حياة الأمّ والطفل للخطر. لكن الإسلام لا يعارض تحديد النسل. وفي مواجهة هذه المشكلة، يدعو الإسلام الإنسان، كما هو الحال بالنسبة إلى مجالات أخرى، إلى التفكير والتدبّر ويوصيه بإعمال عقله. فهل سيجد الطفل الذي سيولد المأوى؟ وهل سيجد الغذاء والدواء؟ وهل سيتلقّى التربية والتعليم كحقّ ثابت لا رجعة فيه؟

يتعين على الوالدين أن يطرحا هذا السؤال على أنفسهما: هل تسمح لهما إمكانياتهما بتربية طفل واحد، اثنين، خمسة أم ثمانية في ظروف جيدة؟ في مثل هذه الظروف، لم يترك الرسول (ﷺ) شيئا للصدفة بقوله: «قال رجل: يا رسول الله، أعقلها وأتوكّل أو أطلقها وأتوكّل؟ قال أعقلها وتوكّل». هكذا ردّ الرسول (ﷺ) على أحد الصحابة الذي أراد ألا يعقل ناقته في الليل. إن كنّا نتساءل عن أمور ثانوية، فلماذا نتحاشى ذلك عندما يتعلّق الأمر بمسؤولية ثقيلة مثل مسؤولية الإنجاب؟

يشتري رجل على سبيل المثال حقلا لا يسع إلا لزرع قنطارين من القمح، فهل يستطيع أن يزرع عشرة قناطر؟ ولديه مربط واحد يأوي أربع أبقار، فهل سيشتري عشرا؟ رجل آخر لديه راتب وشقة لإعالة طفلين وإيوائهما، فهل يستطيع أن ينجب عشرة؟ بطبيعة الحال، قد يكون ذلك ضربا من ضروب الجنون. أما العلم فقد علّمنا بأن كثرة الولادات هي من الأمور التي تتسبّب في إنهاك الأمّ. من الأفضل لنا إذن أن نتمسّك بالنوعية بدلا من الكمية. وإلا ماذا يجري في الطبيعة؟

لنتمعّن عالم الحيوان. عندما كانت الجزائر تتوفّر على مزارع للتجارب في مجال تربية المواشي، كانت نعجتان، على سبيل المثال، من نفس السلالة والسنّ والوزن، إحداهما تلد مرتين في السنة وأخراهما مرّة واحدة، وكانت لهما خرفان متباينة. فقد كان للنعجة الأخيرة خروف أسمن وأقوى وكانت الصوف التي تكسوه أجود من صوف الخروفين الآخرين.

لا يكفي إنجاب الأولاد. بل يجب أن نمنحهم الحياة في ظروف تسمح بإعادة تجديد السلالة جسميا وعقليا. تعليم المواطنين لتحمّل مسؤولياتهم من واجبات الدولة الأساسية. الحكم يعني التنبؤ وان نتصور المستقبل في الحاضر. هناك عقد تضامن وتواصل بين الأجيال المتعاقبة. لدينا مسؤولية

إزاء مستقبل أبنائنا. عند بلوغ سنّ الرشد، يتمنى الأطفال أن يجدوا أشياء أخرى بدلاً من الدخول في نفق الواجبات والمحرّمات وكوابيس الندرة وغير ذلك من العراقيل الكثيرة...

تحرير المرأة

الإسلام حرّر المرأة وفرض عليها نفس الواجبات الدينية التي فرضها على الرجل. وقام المسلمون بحبسها في غياهب الظلمات. في زماننا، لا يعقل أن يتحرّر نصف المجتمع ويبقى النصف الآخر حبيس الجهل والأحكام المسبقة.

يجب أن تستفيد المرأة المسلمة مثلها مثل الرجل من الحظوظ نفسها من التعليم. ويجب أن تتحرّر وأن تساهم في تدبير شؤون الأسرة وتربية الأولاد وسلامة صحة المجتمع.

بعض الرجال يخلطون بين تحرّر المرأة والفجور. ويزعمون بأن تعليم المرأة يؤدّي إلى الفسق والدعارة. هذا اتهام مجاني. التقاليد الحميدة تتوقف أكثر فأكثر على التربية والمحيط العائلي وليس على الخمار والجهل.

ما قد نعيبه على المرأة، عند الاقتضاء، يجب أن نعيبه قبل كلّ شيء على الرجل. في مجتمع يسوده التعليم الديني ومعاني التسامح، ليس هناك ما يهدّد المرأة.

إذا كنا نشهد في أوروبا إباحة الإجهاض وتعاطي المخدرات والكحول وحرية الجنس فلأن المسيحية قد استسلمت لأعمال التخريب التي ما فتئت تنقض عليها. يجب أن تكون لنا الجرأة على رفض الغرائز البهيمية للإنسان وحماقاته السخيفة.

الإعلام العادل مدرسة للتربية والتعليم

أمّا بالنسبة إلى الإعلام، بمعنى الصحافة، الإذاعة والتلفزيون، فإنه ينبغي أن يكون موضوعيا وصادقا حتى يكون إعلاما حقيقيا في خدمة الشعوب.

عندنا، لا شيء من هذا القبيل. قال ماركس «الدين أفيون الشعوب». لقد أخطأ ولم يصب. فلو عرف «الحزب الواحد» لغيّر رأيه. إنّ أسوأ «أفيون»

هو ما يبثه الحزب الواحد، ليل نهار، من خلال صحافته وإذاعته وتلفازه، شيء يثير الاشمئزاز حقا. إنه تسميم للعقول وتجهيل للناس في عقر دارهم.

تمنّينا لو أننا كنّا لا نسمع ولا نعرف القراءة. فهل من الممكن أن يبلغ لاوعي الحكام هذا الحدّ من المغالطات؟ أطلق الجزائريون ممّن يعرفون التميز بين الأشياء على يومية «المجاهد» اسم صحيفة «كلّ شيء على ما يرام».

منذ وقت ليس ببعيد،كان أحد الممثلين في مدينة تيزي وزو يمثّل في كوميديا. زوجة عاتبت زوجها على الوقت الطويل الذي استغرقه حتى يأتي لها بأربعة كيلوغرامات من البطاطس. وكانت البطاطس معبّأة في ورق يومية «المجاهد». لكن، قال الزوج، الحزمة كانت ثقيلة. بها أربعة كيلوغرامات من البطاطس وعشرة كيلوغرامات من الكذب».

الشعب يثأر من المغالطات التي يطعمها له الحزب الواحد كلّما استطاع إلى ذلك سبيلا إمّا عن طريق التهّكم وإمّا عن طريق نشر الإشاعات. عندما نشاهد مثلا على شاشة تلفزيون باريس «جورج مارشي» يجادل الوزير الأوّل ويقول له بعض الحقائق، نكتشف الإعلام الهادف المرشد ونكتشف بالمقابل مدى انحطاط مستوى إعلامنا.

فهل يمكن لهذا الوضع أن يتغيّر في يوم من الأيّام؟

أوقات العمل وأيّام الراحة الأسبوعية

في أوروبا، العديد من الحكومات تسبّق أوقات العمل لاقتصاد الطاقة الكهربائية. هكذا،تتقدّم كل من فرنسا وأسبانيا علينا بساعة واحدة في فصل الشتاء وبساعتين في فصل الصيف.

في أوروبا أيضا، هذا الإجراء مربح للغاية. أمّا في بلدان الضوء والشمس،فإن ذلك لا يجدي نفعا على أقلّ تقدير. عند المسلمين على الخصوص، يمضي النهار حسب وتيرة الصلوات الخمس. ويؤدّي تغيير الأوقات إلى اختلال الجدول الزمني.

في فصل الصيف، عند استئناف العمل على الساعة الثانية والنصف بعد الظهر، تكون الشمس في السمت. فهو وقت الصلاة والقيلولة. في حين تشير

الساعة إلى الثانية عشرة والنصف حسب التوقيت الشمسي. في المساء، هناك نفس الفارق. تكون الصلاة الأخيرة قبل النوم على الساعة الثامنة والنصف. ومع تغيير التوقيت، يجب انتظار العاشرة والنصف لسماع صوت الآذان. لا أحد يستطيع النوم قبل الحادية عشرة ليلا. هذه الساعة متأخّرة للغاية بالنسبة إلى أيّ عامل كان قد عمل طول النهار. الجزائريون عارضوا بالإجماع، بعد استشارتهم، تغيير أوقات العمل.

أما فيما يتعلّق بأوقات الراحة الأسبوعية فقد أدارت الجزائر ظهرها لأوروبا. إلا أن تقليد العطلة الأسبوعية قد بلغنا من الغرب ليدخل ضمن عاداتنا. لم يأت الإسلام بمثل ذلك. الله لم يخلد للراحة في اليوم السابع. الجمعة ليس يوم راحة. بعد قضاء صلاة الجمعة، يجب أن يعود كل واحد منا إلى عمله. إذ جاء في القرآن الكريم: ﴿**يا أيّها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون. فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلّكم تفلحون**﴾ (سورة الجمعة / آية 9-10).

لماذا إذن الإخلال بنظام عالم الشغل وتغيير أوقات الراحة الأسبوعية؟ منذ هذا الإجراء، لم يعد الجزائريون يعرفون أين موقعهم. بالنسبة لهم، الأسبوع يبدأ دائما يوم الاثنين وينتهي يوم السبت. ومن الصعب عليهم التكيّف مع النظام الجديد. ومن الصعب أيضا كسر قرن من العادات. فلماذا نميّز أنفسنا عن باقي شعوب المنطقة الأخرى؟ لقد أصبحت عطلة نهاية الأسبوع من السبت إلى الاثنين عطلة عالمية تقريبا. وكان الجزائريون يؤدّون صلاة الجمعة ويخصّصون السبت والأحد لأبنائهم والخرجات العائلية وزيارة الأحباب والأصدقاء. هذا يخلّ بعلاقاتنا التجارية بالبلدان الأجنبية.

هذا يدعو إلى الاعتقاد بأن هذا الإجراء قد تمّ اتخاذه لأسباب دماغوجية محضة.

احترام الشعب والإيمان بالإسلام

يتظاهر الحكم الثوري أنه يقوم بالتنازلات لصالح المجتمع المسلم من خلال تغيير أيام الراحة الأسبوعية بينما لا يتوانى في تقويضه بكل ما يقوم به من حركات وتصرّفات لصالح المجتمع الاشتراكي الماركسي. لو شاء علماؤنا أن ينخدعوا، فهذا ليس شأني. أقول ذلك بصوت عال لأنها الحقيقة بعينها. كلّ ما يجري في الجزائر موجّه ضدّ الإسلام، بداية بنموذج المجتمع ومرورا بالنظام الاقتصادي إلى النظام السياسي، الخ. لا شيء إلا تمجيد الاشتراكية الستالينية.

بطبيعة الحال، لم يكن هذا العمل الهدّام ممكنا لولا وجود نسبة عالية من الأمّيين في أوساط سكاننا (80 ٪) ولولا وجود شريحة واسعة منهم في مرحلة الطفولة. الطفل كالعجينة الطيّعة من السهل أن يقع ضحية مربّ سيّء. إنه بكل بساطة حال شعبنا. قادته يستهزئون به ويفرضون عليه الممثّلين الذين يختارونهم له. كما يختارون له الميثاق والدستور ونموذج المجتمع كما يشاؤون. لم تتمّ هذه الخيارات لصالح شعبنا وإنما لضمان الحكم لأولئك الذين يسيطرون عليه. يمكننا أن نتلاعب بالجماهير بكل سهولة ضد مصالحها الخاصة.

لكن من الصعب أن نحكم شعبا بإنصاف ونحن نخدعه ونحتقره في الوقت نفسه. كما لا يمكن للجزائر أن تستقرّ إلا عندما يحترم الجزائريون و يصبحوا أهلا للاحترام. التقدّم الذي ننشده لهم هو تقدّم شامل وتقدّم يكون في متناول الجميع. علينا أن نتصرّف تصرّفا قويا يستهدف المتخلّفين والمحرومين ويستدرجهم معنا إلى طريق الرفاهية والتجديد. التصرّف في كنف المودّة والحقيقة. التربية الاجتماعية شأنها شأن التعليم. لنشدّ على عروة الإسلام الوثقى التي لا نزاع حولها.

للجزائر أن تتعلّم كلّ شيء ما دام أنها قد ولدت لأوّل مرّة في رحم السيادة. ولنمض رويدا رويدا وليفهم بعضنا بعضا. يقول الصينيون بكثير من الصواب والحكمة: « من يستعجل أمره لا يبلغ غايته»، أو بعبارة أخرى عند العرب «في العجلة الندامة وفي التأنّي السلامة». لا أفتري على أحد لو أكّدت بأنه كان يمكن للجزائر أمس أن تطمح إلى الازدهار التامّ. لكنّنا نراها اليوم وهي تتّجه مباشرة نحو الإفلاس التامّ. بلادنا الآن في حالة خراب

لأنه لم يعد هناك أحد يريد العمل ولأنّ السلطة لا تريد أن تكفّ عن تبذير أموال الضرائب النفط والغاز. لو لم يدفعنا الحكم الفردي إلى طريق الدمار الاشتراكي الشيوعي وهو يجهل تماما مبادئه لما وصلنا إلى هذه المرحلة.

في كتابات الرئيس ماو تسي تونغ، يمكننا أن نذكّر بعرض مطوّل قدّمه أمام الحزب الصيني في 1949. كان بإمكان أي مسلم أن يخطب هذا الخطاب. وقد جاء فيه ما كان يمكن أن أقوله أنا شخصيا: «حرية المبادرة، رقابة الرأسمالية، اقتطاع الثروة». في هذا الخطاب، عرض الرئيس الهياكل الاقتصادية للحاضرة الإسلامية كما ينبغي لها أن تكون. ولهذا يسعدني أن أقتبس المقطع الآتي من هذا الخطاب:

«غالبا ما شارك المضطهدون أو المقيّدون في نشاطهم من قبل الامبريالية والإقطاع والرأسمالية البيروقراطية والبورجوازية الوطنية الصينية وممثّليها في كفاحات الثورة الديمقراطية الشعبية أو التزموا الحياد في ذلك. لهذه الأسباب وغيرها، كتخلّف الاقتصاد الصيني المستمرّ، لقد بات من الضروري اللجوء، بعد مضي فترة طويلة نسبيا من انتصار الثورة، إلى استعمال ما أمكن من العوامل الإيجابية للرأسمالية الخاصة في المدن والقرى لصالح تنمية الاقتصاد الوطني.

«خلال هذه الفترة، يجب أن نسمح لكلّ عناصر الرأسمالية الحضرية والريفية المفيدة وغير المضرّة بالاقتصاد الوطني، بالوجود والتطور. هذا لا مفرّ منه فحسب، وإنما ضروري من الناحية الاقتصادية أيضا.

«لكنّ الرأسمالية لن تتأسّس ولن تتطوّر في الصين بالطريقة نفسها التي تطوّرت أو تأسّست بها في البلدان الرأسمالية التي يمكن لها أن تتجاوز فيها كل الحدود بكل حرية ولا يمكن كبح جماحها. سوف نقوم بلجم نفوذ الرأسمالية في الصين بطرق شتّى: تقييد مجال نشاطها والسياسة الجبائية وأسعار السوق وظروف العمل. سوف نعتمد سياسة ملائمة ومرنة من أجل الحدّ من نفوذ الرأسمالية بطرق عديدة ووفق الظروف الخاصة بكل موقع وكل فرع وكل فترة. إنه من الضروري والمفيد لنا أن نستخدم شعار – سان ياتسن[1] – المتعلق بمراقبة رأس المال.

---

1. سان يات سان 1866-1925 Sun Yat Sen دكتور في الطب، زعيم ثوري ورجل دولة. يعدّ أب الصين الحديثة.

لكن لا ينبغي لنا على الإطلاق أن نحدّ من نفوذ الاقتصاد الرأسمالي الخاص بشدة كبيرة. إنما علينا أن نفسح له المجال من أجل بقائه ونموّه في إطار السياسة الاقتصادية للجمهورية الشعبية وتخطيطها الاقتصادي وفي مصلحة كلّ الاقتصاد الوطني والطبقة العاملة وسائر طبقات الشعب الكادحة، حاضرا ومستقبلا.

«حتما، ستصطدم سياسة الحدّ من نفوذ الرأسمال الخاص، بدرجات متفاوتة وبأشكال مختلفة، بمقاومة البورجوازية، ولاسيما من قبل كبار ملاّك الشركات الخاصة، أي كبار الرأسماليين. وسيتّخذ الحدّ من هذا النفوذ ومواجهته أهمّ أشكال صراع الطبقات في واقع الديمقراطية الراهن.

«إنه من الخطأ أن نفكّر بأننا لسنا في حاجة إلى الحدّ من نفوذ الرأسمالية في الوقت الحالي وبأننا نستطيع أن نقصي شعار «مراقبة الرأسمالية». هذا يدخل في صلب انتهازية اليمين. كما أنه من الخطأ الاعتقاد في المقابل بأنه ينبغي لنا أن نفرض حدودا تكون من أكثر الحدود قسوة وتقييدا للرأسمال الخاص أو بأننا نستطيع حتى نقضي على الرأسمال الخاص في وقت أسرع. فهذا يدخل في صلب انتهازية اليسار أو يعدّ ضربا من ضروب المجازفة.»

في هذا الجانب من التفكير، يلتقي ماو تسي تونغ بالنظام الاقتصادي الذي وضعه الإسلام. الخيار الذي رسمه هو خيار الوسطية الذي يرفض هيمنة المال ويحترم الملكية الخاصة كثمرة للجهد والكدّ والعمل الدؤوب.

منذ خمس عشرة سنة، لم تتعاط جزائر بومدين،و جزائر بن بلة، إلا مع «السياسة اليسارية» و «المغامرة السياسية». وبحجّة التعاطي مع الاشتراكية، استنسخت بكل حماقة وسخافة الدوّل الشيوعية دون أن تكون لها الشجاعة على تحديد موقفها إزاء الثورة الماركسية التي اعتمدت مع ذلك مناهج حكمها.

أكرّر هنا ما سبق لي أن ذكرته في موضع آخر. فعندما يتولّى المرء مسؤولية الملايين من البشر ويتحمّل مسؤولية مستقبلهم ومستقبل أولادهم، ينبغي له أن يرسم طريقه بوضوح وأن يؤكّد مذهبه وأن ينأى بنفسه عن التناقضات والأفكار المبطنة.

ينبغي لأي قائد أن يصعد إلى القمم حتّى لا تحجب الشجرة الغابة عن بصره ويشرف ببصره على الآفاق الرحبة ويتحدّث بلغة واضحة دون أيّ ملابسات أو أباطيل.

لا يمكن للشعب أن يصغي لهذا القائد أو يقتدي به إلا إذا توفّر هذا الشرط فيه.



ثــالــثــا

العلاقات الخارجية للجزائر

دبلوماسية وحرية

﴿يا أيّها الذين آمنوا لا تتّخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطانا مبينا﴾
(سورة النساء – الآية 144)

«من رأى منكم منكرا فليغّره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان»
حديث شريف

لم تكتمل الحرب العالمية الثانية بعد. وما زلنا نعيش آثارها وانعكاساتها إلى اليوم. شرارة في مكان ما تكفي لاشتعال النار من جديد.

أحبّ بلدي بكلّ ولع. وأحبّ الشعب الذي أنتمي إليه. لكنّني لست مصابا بهستيريا الوطنية الكلّية. في الإسلام، كلّ الشعوب تشكّل أسرة واحدة. لن أكون مؤرّخا رسميا للأنظمة التي تحكمنا. يموت الرجال وتبقى الحقائق التاريخية.

نظرا إلى خصوصياتنا العربية البربرية، لا شيء يمنعنا من التفكير بأنّ للجمهورية كلّ الفرص لتصبح دولة ديمقراطية ولبرالية يتعيّن عليها أن تلعب دورا كبيرا في تحقيق التوازن السياسي في شمال أفريقيا والبحر المتوسّط.

على بلادنا أيضا أن تذعن للمتطلّبات التي تترتّب على انتمائها إلى الإسلام والمغرب العربي البربري وحوض البحر المتوسّط الذي تحتلّ المسيحية فيه مكانة هامّة للغاية.

سوف نضلّ الطريق لو أنّنا ابتعدنا عن الإطار الطبيعي لسياستنا الخارجية. وفضلا عن ذلك، فقد رسمت حرب التحرير الجزائرية منذ بداياتها الأولى معالمها.

رغم التوجّه الماركسي الذي اتّخذته الجزائر منذ استقلالها، لم تحسم القضية بعد. الإسلام، وبالأحرى المغرب الإسلامي، ليس خارج حلبة الصّراع. لا يمكن انتهاك حرمة المصالح العليا لأيّ بلد دون مواجهة سلسلة من المقاومات الصمّاء. غالبا ما تكون حكمة الشعب، وبالأحرى سلوك الجماهير العفوي، أقوم وأصلح من أيّ إستراتيجية لقادتنا الحاليين مهما تكن براعتهم ومراوغتهم.

وحدة بلاد البربر

منذ القدم، انشغل جلّ عظماء شمال أفريقيا بمسألة وحدة البربر. منذ ماسينيسا فالمرابطين ثم الموحّدين مرورا بالأغالبة، أخذوا كلّهم على عاتقهم مهمّة توحيد بلداننا.

عندما نتحدّث اليوم عن هذه الوحدة، فهذا لا يعني أنّنا نركض وراء أضغاث أحلام، لكنّنا نتحدّث عن حقيقة ممكنة. لقد تغلّبت المسافة والفضاءات الشاسعة على إرادة رجال العصور الوسطى. غير أنّ مشكلة المسافة لم تعد قائمة في أيّامنا هذه. فقد تغلّبت وسائل النقل على الفضاءات الكبرى. وما لم يكن ممكنا في الماضي أصبح في متناول اليد في عصرنا ويكفي لنا أن نتصوّر ذلك ونبتغيه. تتحدّث الصحافة الجزائرية وتصريحات بعض الرجال باتّجاه السلطة عن إعادة بعث «الأمّة العربية». أليس من المنطق العمل في البداية على تجسيد الاتحاد المغاربي بأسرع وقت ممكن؟ لنكن أكثر تواضعا ولنبدأ من البداية. من استطاع الكثير أمكنه اليسير.

بفضل احترام المجالس التأسيسية لبلاد المغرب الحالية – موريتانيا، المغرب، الجزائر، تونس وليبيا – من خلال إثرائها بما يوجد بينها من اختلافات وبفضل تضافر قدراتها الاقتصادية وفتح الحدود الإدارية الأكثر منها وطنية أمام حركة الأفراد والسلع وبفضل دراسة مشكلاتها داخل

ابرلمان استشاري» يتكوّن من نوّاب يعيّنهم كلّ بلد من هذه البلدان، فإنّنا سنجعل من شمال أفريقيا مجموعة من ستين مليون نسمة قد تتحوّل إلى شريك جادّ يطلبه باقي العالم.

عالم ما بعد الحرب ينحو نحو التكتّلات الكبرى. الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي والصين وأوروبا السوق المشتركة هي تكتّلات قويّة لأنها تتوفّر على ثروات كبيرة ولأنها تتوفّر على قدرات بشرية هائلة على الخصوص.

المقصود ليس التّنافس مع هذه المجموعات. لكن من الممكن أن نقتفي آثارها. من حظّ الشعوب المغاربية أنّها تتكلّم لغة واحدة وتدين بديانة واحدة ويسري في عروقها دم واحد. لا يمكن لتناسل القبائل فيما بينها منذ القرن السابع تحت حوافر خيول فرسان الله أن يترك أيّ مجال أمام الصراعات الوطنية. حدّد الرئيس بورقيبة هوية المغرب الكبير بـ «البرنوس» و«الكسكس» اللذين ينتهيان في حدود الجبل الأزرق.

ثمّة تجانس أقلّ بين مختلف الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية ممّا يوجد بين موريتانيا والمغرب والجزائر وتونس وليبيا. لكن ينبغي لنا أن نتّجه مع ذلك صوب هذه الغاية النبيلة بكلّ واقعية.

عندما تعارض الجزائر «الاشتراكية» المغاربة لأنها لا تتّفق مع نظامهم، فإنها ترتكب بذلك خيّانة في حقّ قضية حسّاسة وغاية نبيلة وتريد في الوقت نفسه أن تفرض احترام أحد مبادئ الحقّ والقانون: مبدأ حرية شعب في تقرير مصيره. في الحقيقة، الجزائر الاشتراكية في هذه المغامرة الدموية بين الأشقّاء، لا تخدم إلا مصالح الشيوعية العالمية. ومن البديهي، لم تكن هذه المغامرة ممكنة إلا بعد تغييب الشعوب المغاربية. ولو أشركت هذه الشعوب في الحكم، لما وقعت مثل هذه المأساة.

في حرب الجزائر، كانت تربط سكّان شمال أفريقيا علاقات متينة. في المغرب وتونس وليبيا، لقي الجزائريون كلّ الترحيب وكرم الضيّافة ويد المساعدة على أوسع نطاق. فبفضل أيّ حماقة أصبحت هذه الأخوّة دموية؟

لقد أيقظ التنافس بين بومدين والمغاربة نزعة «اليسار المغربي» إلى الحرب. كان يجب، حسب هذا اليسار، تعديل الحدود الجزائرية المغربية كما كانت حدود الإمبراطورية العلوية قديما. لا أشاطر هذا الرأي. لقد دفن الماضي مع نهاية قرن من الاستعمار ومرور الحربين العالميتين الماضي. وفي الوقت الذي

لا تطرح فيه أيّ مشكلات عرقية ودينية، يصبح تعديل الحدود ضربا من المغالطات السخيفة. عالج «تيبور ماند Tibor Mende»هذه المسألة بطريقة أنسب بكثير من طريقة المغاربة:

«إذا كان من الممكن تأييد المطالب الترابية القائمة على «الحدود التقليدية»، استنادا إلى أوضاع قديمة عمرها قرن من الزمن، فإنه يمكن للنمسا أيضا أن تطالب بأكبر جزء من أوروبا الوسطى، ويمكن للهند أن تطالب بسيلان ويمكن تركيا أن تطالب بحقوقها في الشرق الأوسط.[1]»

في 1960، كانت مسألة تأسيس الدولة الموريتانية تندرج ضمن جدول أعمال ندوة الدار البيضاء خلال اجتماع لها عقد بمبادرة من محمد الخامس[2]. آنذاك رفض المغرب شرعية هذه الدولة بسبب مسألة الحدود. ولم تتبنّ الندوة التي جمعت مصر وغينيا ومالي والجزائر والمغرب وليبيا بصفة ملاحظ، وجهة نظر المغرب. وكانت ترى بأن الدولة الموريتانية قد كانت تشكّل جسرا ناجحا بين أفريقيا السوداء وشمال أفريقيا. في بعض النواحي، كانت تشكل هذه الدولة أحد عوامل توازن القارّة الأفريقية.

مع مرّ الأيام،انتهى الأمر بالمغرب إلى الانضمام إلى هذا الموقف وأصبح حليفا لموريتانيا.

كان من الممكن أن نجد حلاّ يلبّي مطالب البوليزاريو دون جرّه إلى نزاع لا يأتي بأيّ تسوية ملموسة.

كان الحلّ السلمي أفضل الحلول. ومهما يكن، عندما يتعلّق الأمر بسكان الصحراء العرب البربر، مسألة الأقليات غير مطروحة. كلنا أبناء عمومة ولا يهمّ إن كنّا عند العمّ أو الخال. ولا شيء يمنعنا من استغلال ثروات الأرض استغلالا جماعيا. ليس من المعقول أن يكون الجزائريون والمغاربة أغنياء بينما تبقى الشعوب المغاربية الأخرى تعاني الفقر. ثروة جيراننا هي ثروة لنا.

هذا ما أومن به. فمن البديهي لا يوجد رأي على الإطلاق يستطيع أن يكسب في أيّ ديمقراطية كانت أيّ سلطة إلا إذا كانت هناك آراء أخرى.

---

1. تيبور ماندي – Tibor Mende «الصين وظلّها – La Chine et son ombre» دار النشر «لو سوي – Seuil»– باريس 1960.

2 – محمد الخامس (1909 – 1961) – سلطان المغرب في 1927.

ولن تتحوّل هذه الآراء إلى «برنامج» إلا إذا قام الشعب بتزكيتها أو منح أصواته لها.

لا تقوم الشرعية الجمهورية على الانقلابات ولا حتى على الانتخابات المزوّرة لصالح مرشّح واحد يرشّحه حزب واحد. فالحزب الواحد يعني بالضرورة مصادرة الحرية.

لا يمكن للرجال الذين ينتمون إلى جيلي ممّن عايشوا النظم الاستعمارية وتزوير الانتخابات ومنطق الأقوى وانتهاك الشرعية الخضوع لدكتاتورية جديدة في بلد كبلدنا يفتقر إلى تجارب ماضية للدولة ويجب استحداث كل شيء فيه، ليس هناك ما يربط المواطنين بعضهم ببعض فيما عدا رابط الإسلام واحترام الاقتراع العام وحقوق الإنسان. وإذا ما حرمت البلاد هذه الروابط، أو بالأحرى هذه الثوابت الثلاثة، لن تكون الديمقراطية سوى حكما استبداديا.

لا ينبغي لنا أن ندير ظهورنا لحضارتنا. الجزائر مسلمة ومغاربية. وفي هذا الإطار بالذات يمكن لنا أن نبني مستقبلها بشكل أفضل. وبما أن الجزائريين قد جاهدوا خلال حرب الجزائر في سبيل عقيدتهم الإسلامية وإيمانهم، فعليهم البقاء كذلك وأداء مهمّتهم المتمثّلة في بناء الحاضرة الإسلامية ضمن سياق المغرب الكبير.

الدّرب طويل وشاقّ بلا شكّ. فعلينا أن نستصلح الأرض قبل زرعها وحصادها. إنّ توجيه دوافع الدول المغاربية في نفس الاتجاه وتحقيق الاستغلال المشترك لثرواتها الطبيعية وتوزيع منافعها بالقسط على جماهيرها الشعبية هي أعمال جسام تتطلّب صبرا طويلا وتجنيدا لأفضل النوايا الحسنة.

من المرجّح تماما أن المغرب الكبير لن يتوصّل، حسب هذا التصوّر، إلى صنع القنبلة الذرية ولا الصاروخ في القريب العاجل، ولكنه سوف يتصالح مع علوم ابن سينا وسوف يعيد لمواطنيه ابتسامة الطفولة وسعادة حياة الحرية.

وهذا ما سيكون أفضل بكثير.

❋

أفريقيا السوداء

أصبحت أفريقيا، ولاسيما أفريقيا السوداء، تشكّل رهان المواجهة ب
الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي[1]. فلا يسعنا إلا أن نتأسّف لهذا المص
لأنه كان يمكن أفريقيا أن تبقى أفريقية.

منذ القدم، تعايش الإسلام والمسيحية في أفريقيا ولم يؤدّ هذا التعايش
ذلك إلى اختفاء الإحيائية (الأنيمية – Animisme) وما يتّصل بها، كالحر
الزنجية التي تشكّل مصدر اعتزاز لدى الرئيس «سنغور» Senghor. حضو
الإسلام في هذه الأصقاع يفرض علينا واجبا مزدوجا اتجاه القارّة السودا
بأسرها. الرباط الديني هو «الحبل السرّي» الحقيقي بمضاعفاته المتعدّدة. إ
صمد هذا الحبل السرّي في وجه المسيحية والإحيائية، فالأمر ليس كذلك في
مواجهة الماركسية. إن نشب الصراع بين هذه الأخيرة والدولار الأمريكي
وإن ازداد حدة، فقد تتحوّل أفريقيا إلى مسرح للاقتتال الدموي وقد يعاني
الإسلام من جراء ذلك.

حسب دراسة أعدّها «فانسون مونتوي» Vincent Monteil، عندما
كان أستاذا بكلية الآداب في «داكار»، يبلغ عدد المسلمين 36 مليون مسلم
على الأقلّ. اعتناق الإسلام في نموّ متزايد لأنه هو الدين الذي يراعي بشكل
أكبر طبيعة الإنسان. باعتماده على تعليم الشعوب وعلى الثقافة العلمية، يوفر
الإسلام زيادة على ذلك الأخلاق وطهارة الأبدان التي تجعل منه دين تقدّم
وحرية.

في غينيا، يبدو أن الحزب الديمقراطي يحاول محو الإسلام من البلد
قصد ترسيخ الاشتراكية الستالينية بشكل أفضل. في منشور صدر تحت رقم
BPN /81 في 16 أكتوبر 1959، كرّر أمين عام الحزب، السيد سيف الله
ديالو، نفس الافتراءات ضدّ الإسلام التي تنتشر في الاتحاد السوفياتي.

فهل ينبغي لنا أن نضحك أم نبكي؟ تظلّ الماركسية الستالينية، مصدر
اعتزاز «الملوك بدون تاج» ضربا من اليوتوبيا الفظّة. أيّ مجتمع بلا طبقات ولا
إله ولا ملكية خاصة ولا دولة ضرب من الأحلام الضبابية. ويعدّ الإسلام،

---

1. هذا صحيح في إطاره الزماني، أي قبل «سقوط» جدار برلين وانتهاء «الكتلة» الشرقية–الشيوعية–السوفياتية. (الناشر)

على عكس ذلك، حقيقة موضوعية، إنسانية ومساواة وإنصاف. إذا كان هناك مسلمون فاسدون، فالخطأ يقع على عاتقهم وليس على الإسلام.

أحد طموحات الجزائر هو تعريف المسلمين الأفارقة بالوجه الحقيقي للإسلام. في 1966، غمرتني سعادة كبيرة وأنا أؤدّي شعائر الحجّ مع مسلمين من السنغال وغينيا في البقاع المقدّسة. مشاعر هذا الإخاء لا نظير لها وما علينا إلا نعزّزها وأن ندعمها بركائز أوسع. إنّ بناء جامعة كبيرة للعلوم الإسلامية، في الصحراء الجزائرية، إمّا في القليعة وإمّا في أدرار وإمّا في رقان، قد يستجيب لهذه الحاجة إلى التعارف وتبادل التقدير بشكل أفضل.

يجب بذل المزيد من الجهود في هذا الاتجاه لصالح الوحدة الأفريقية والتعريف بإسلام أصيل.

الجامعة العربية والعالم الإسلامي

انضمّت الجزائر إلى الجامعة العربية. وهذا أمر طبيعي. فقد لعبت هذه الجامعة ولا تزال تلعب دورا لا يستهان به. لكنّ قد نواجه خطرا كبيرا لو طلبنا منها أكثر ممّا يمكنها أن تقدّمه.

هناك اختلاف وتباين بين الشعوب العربية – مسلمين ومسيحيين – (أو بالأحرى الدول العربية الأقرب للواقع). تتفاوت في مستوى نموّها وتختلف في العادات. وغالبا ما تتعارض في المصالح. إذ يعبّر فشل الجامعة في إيقاف الحرب الأهلية في لبنان أبلغ تعبير عن عجزها وعن تناقضاتها. إنّ قيام الحكم الثوري في الجزائر بتسليح رجال ضدّ شعب شقيق دون استدعائه إلى النظام ما هو إلا دلالة على ضعف هذا الجهاز. كما أنّ أعمال التقتيل التي ينفّذها الجنود الكوبيون والدبابات الروسية ضد الصوماليين[1] لم تثر أيّ احتجاج لدى الجامعة، الخ.

في مثل هذه الظروف، قد يكون من الوهم ومن غير المعقول الحديث عن «الأمّة العربية». لا يمكن للخرافات أن تحجب الحقائق وأن تصرف أنظارنا عنها.

1. خلال «حرب الاوقدان»، بين إثيوبيا والصومال.

العالم الإسلامي

من وجهة نظر معيّنة، لا يمكن لانشغالات الشعوب العربية ومشكلاتها، وعلى رأسها معضلة فلسطين، أن تغنينا عن إيجاد نوع من التضامن مع العالم الإسلامي ومصيره.

تواجه حاليا الشعوب التي تدين بالدين الإسلامي وتنتسب إلى حضارته مشكلات كبيرة. لقد أتت من إمبراطوريات العصور الوسطى. وهي الآن في مفترق الطرق وفي تساؤل مستمرّ. وتحذوها نفس الإرادة للخروج من نفق العصور الوسطى.. نفق التخلّف والجهل والعبودية.

منذ زوال الخلافة الإسلامية في 1924، أصبحت هذه الشعوب تسير بلا دليل وتعيش حالة من التشتّت والتشرذم، تتجاذبها القوى العظمى والإيديولوجيات التي نشأت في أوروبا.

نتيجة لذلك، تمزّق حبل الإسلام وجاء «تقدّميون زائفون» يحاربون قيمه الروحية دون أن يطعنوا فيها بشكل صريح، بينما المجتمع الإسلامي يرتكز بالأساس، كما ينبغي له أن يكون، على التقدم والعلم.

لماذا لا نفسح المجال أمام تبادل الأفكار والآراء فيما بيننا؟ قد يكون هذا ممكنا بفضل استحداث نوع من «مجمّع ديني» قد يكون مقرّه الدائم في المدينة أو في أيّ مكان آخر. ويضمّ مسلمين من كلّ الجنسيات ويتمتّع بكل السلطات للحكم بين مختلف الآراء والفصل فيها.

في الحقيقة، ليس هناك إلا طريقة حتى نكون مسلمين. لمواجهة العالم المعاصر، ينبغي للإسلام أن يحتفظ بعالميته وأن يكتشف الأدوات العالمية ليحلّ أزماته.

إحياء دراسة العلوم الدقيقة [illegible] لتقليل من الخطابات والإهتمام ببناء المزيد من المخابر ومعاهد البحث العلمي.

مع إزالة عقدة «[illegible]» عند الناس. فأيّ تطوّر إنساني يتوقّف على تحرّر المسلم والارتقاء به إلى [illegible] المواطن الحرّ الواعي بمسؤولياته.

يذكّرنا «مونتيسكيو» Montesquieu بوجود أصناف ثلاثة من الحكم: الحكم الجمهوري والحكم الملكي والحكم الاستبدادي. يركز الأوّل على

الفضيلة والثاني على الشرف والثالث على الوحشية. لكن هيهات ! أغلب الدول الإسلامية تحكم بترهيب رعاياها. وما لم تغيّر من ممارستها هذه، فإنها لن تحقق أيّ شيء.

العمل من أجل تحقيق السّلم. فلا يمكن للعالم الإسلامي أن يتطوّر إلا في ظلّ السّلم. ويتطلّب تجهيزه الصناعي والاجتماعي تخصيص ميزانية للسّلم. ويعني شراء الطائرات والدبّابات والمدافع حرمان هذا العالم بناء المستشفيات والمدارس والمعاهد والطرق وغير ذلك.

الحياة قبل كلّ شيء !

اعتماد حياد جذري بين المعسكرين الأمريكي والروسي وعدم الانحياز لأيّ من الرأسمال الأمريكي المتوحّش العدواني ولا لفيروس الاتحاد السوفياتي الماركسي.

فمن كان بإمكانه أن يتصوّر بأنّ العدوى ستنتقل إلى شمال أفريقيا وستصيب تونس الوديعة الهادئة؟ استهدف العدوان الإسرائيلي على العاصمة التونسية أبرياء وتسبّب في قتل أرواح لبشر لا علاقة لهم بقتل أفراد الجيش الإسرائيلي الثلاثة وألقى بحزن المآتم عند أبوابنا. قد تذهب إسرائيل أبعد من ذلك بدعم من الولايات المتحدة لها وتواطئها معها. فلماذا ستتوقّف بعد كل ما فعلته؟ أعظم قوّة في العالم تزكّي ذلك. لكن هل سيعفو الله عنها؟ في الحقيقة، الولايات المتّحدة التي كانت، في الماضي، تحمي الشعوب المستضعفة وتدافع عن القانون، قد تغيّرت عبر القرون. واليوم، أصبحت تهتمّ فقط بهيمنتها الاقتصادية أكثر ممّا تهتمّ بالقضايا العادلة والمبادئ الأخلاقية عبر العالم.

فهل كان جورج واشنطن ولنكولن سيسمح، كما فعل ريغان، بالاعتداء على تونس الهادئة؟

لكن تاريخ البشرية مليء بالمفاجآت وغالبا ما تقهر أحسن الإستراتيجيات. في 1958، انتهك الطيران الفرنسي، خلال حرب الجزائر، حرمة التراب التونسي كإنذار للرئيس بورقيبة ودمّر في ساقية سيدي يوسف إحدى المدارس وزرع الدمار والخراب بها.

خلافا لتوقّعات الجيش الفرنسي، سوف يحدث هذا العمل الوحشي نتائج عكسية ارتدّت على النظام الاستعماري. أوّلا، تاريخ 13 مايو وانتفاضة «الأقدام السوداء»، ثمّ العودة إلى حكم «دي غول» وإقامة المؤسسات التي قادتنا إلى الاستقلال.

صحيح أنّ الجنرال «دي غول» قد ترك لنا حكما قاسيا على اليهود، ولكن الأحداث ما فتئت أن أكّدت لنا ذلك يوما بعد يوم. «إنّه شعب، كما قال، متسلط وواثق من نفسه».

منذ استيطانها في فلسطين عام 1948، لا تزال إسرائيل تحلم بالتوسّع وتشنّ الحروب على العرب. فهل ستعود في يوم من الأيام إلى الواقع وتضع سلاحها جانبا؟

لن تعيد الولايات المتحدة السلم إلى الشرق الأوسط. لأنّ الإبقاء على الحرب في البحر المتوسّط، وبالخصوص في فلسطين، يأتي في صميم استراتيجيتها.

أنا شخصيا، لدي أصدقاء من كلّ الانتماءات الدينية. إنّني أتوجّه إليهم، كما فعلت مع «ماندس فرانس Mendès France»، وأطلب منهم التجنيد من أجل تحقيق السلم بين الإسرائيليين والفلسطينيين.

السلم يحمل ثمارا خاصة به. وهذه الثمار هي التي ستغذّي سائر ربوع هذه المنطقة من العالم.

العلاقات بالفاتيكان

ضمن منظور تحقيق التفاهم بين الأديان التوحيدية الثلاثة، لا يمكن لعلاقاتنا بقائد المسيحيين إلا أن تيسّر لنا المهمّة. ولا يمكن أن يكون لقداسة البابا إلا التأثير الحسن.

إنّنا نعرف كلمة ستالين لمّا طلب منه إيفاد ممثّلية له إلى الفاتيكان: «كم فرقة عسكرية لديه؟». لم يكن ستالين الذي بقي متمسّكا بالمنطق الماركسي يؤمن إلا بالقوّة الوحشية.

لكن ثمّة قوّة أخرى هي القوّة الروحية والهمّة الدينية. وهي قوّة أكثر استدامة وهي أيضا قوّة لا يمكن إدراكها.

نحن وأوروبا الغربية

لقد أدّت الحربان العالميتان، حرب 1914 – 1918 وحرب 1939 - 1945 إلى تقسيم أوروبا إلى ثلاثة أشطر: أوّلا الشطر الأمريكي، أي الشطر الذي يمكن تسميته «أوروبا الجديدة». ثمّ شطر أوروبا الماركسية الذي يتزعّمه الاتحاد السوفياتي. وأخيرا شطر أوروبا السوق المشتركة الذي كان خلال القرون الأخيرة رمزا للحضارة الحديثة والتوسّع الاستعماري والاكتشافات العلمية.

من المفارقات الغريبة أن العواصم الاستعمارية القديمة هي التي تعرف مشكلاتنا معرفة أفضل لأنّها هي التي افتعلت جزءا منها. لكن هذا هو الواقع. وهي الأقدر على فهم هذه المشكلات ومساعدتنا على فهمها. في الوقت الحالي، هناك حديث عن الاستعمار الجديد. لكن هذا الأخير لا يمكن أن يأتي إلا من الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفياتي. ولا يمكن أن يكون إلا استعمار الدولار أو الفيروس الماركسي.

بالنسبة إلى أوروبا التي خرجت من الحربين العالميتين في حالة من الإنهاك والوهن،انتهى عهد الاستعمار ولم تعد أوروبا الغربية مصدر خطر. تمّ طيّ الصفحة تماما. وقد يكون من العبث أن تستقرّ أنظارنا على الماضي وأن نحافظ على خلافات الماضي وكراهيته.

سوف تتغلّب الأحداث، بقوّة الأشياء، على المواقف التي أوجدتها النظم الاستعمارية. وسوف يقوم حتما بيننا وبين الأمم الاستعمارية القديمة نظام اقتصادي آخر بفضل تقارب إراداتنا.

تنظر المستعمرات القديمة والبلدان المستعمرة لها إلى هذا النظام الجديد نظرة يكتنفها الكثير من الغموض. ويمكننا أن نلاحظ على سبيل المثال بأن الأفارقة والآسيويين يتنقّلون إلى العواصم الاستعمارية القديمة بسهولة أكبر من تنقّلهم إلى أيّ مكان آخر. ورغم ظروف الماضي وتقلّباته، فقد نسجت، كما

يبدو، روابط واسعة الانتشار، غير واضحة المعالم، بلا علم منهم، بين رجال عاشوا فوق أرض واحدة. يجب أن تتحوّل العلاقات بين هؤلاء الرجال إلى «عقد اجتماعي»، على سبيل المثال، ينحو نحو ترقية الجماهير المحرومة. أوروبا تمتلك ما لم نحصل عليه بعد: العلم والتكنولوجيا. بإمكانها أن تنقل ذلك إلينا. ونحن بدورنا نملك ما تحتاج هي إليه من مواد أوّلية ومجال الأنشطة الواسع (التجهيزات، التصنيع، التعليم) والمفتوح على ذوي النوايا الحسنة كلّها.

أوروبا تحتاج إلى ازدهارنا كما نحتاج نحن إلى ازدهارها. وهو ما يفرض وضع أسس جديدة للتعاون.

لا أعتقد أنني أخطأت وأنا أؤكّد بأنّ أوروبا السوق المشتركة لم تعد تهدّدنا. ونظرا إلى وجودها بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي، فإنها قد أصبحت بقوّة الأشياء قوّة سلمية.

عندما يحذّرنا رؤساء بعض الدوّل الأفريقية أو الآسيوية من خطر الاستعمار الجديد، فإنّهم غالبا ما يموّهوا من وراء هذا المصطلح عجزهم في إدارة شؤون بلدانهم إدارة سليمة، ويخفون بذلك ضعفهم وطموحاتهم الخاصة. واليوم، لا أحد يقبل الاستعمار إلا من له القابلية لذلك.

بالنسبة إلى الجزائر، المصالحة مع فرنسا والفرنسيين شرط واجب لأيّ تغيير. وكذلك مصالحتها مع شركائها في السوق المشتركة. لا الولايات المتحدة ولا الاتحاد السوفياتي يستطيعان استبدال هؤلاء دون إحداث تأخر يلحق أضرارا كبيرة بتطوّرنا. لا ينبغي لنا أن ننسى بأنّ مليون من أهالينا يعيشون في أوروبا ويشكّلون حلقة من الحلقات الكثيرة التي تربطنا بها.

لا أقول بأن الجزائر لا تحتاج إلى توسيع علاقاتها الدولية إلى باقي العالم والولايات المتّحدة والاتحاد السوفياتي والصين واليابان، الخ... وإنّما أقول إن التطوّر الذي شرعت فيه فرنسا في شمال أفريقيا يجب أن يتعمّم وأن يكتمل بفضل مساعدتها أساسا.

بالتأكيد، فرنسا وأوروبا تدينان لنا هذا التطوّر ما دام أن سكّان شمال أفريقيا قد هبّوا إلى نجدتها في كثير من المناسبات.

إننا زيادة على ذلك، وكما قلت مرارا وتكرارا، في حاجة إلى توفير مناخ جديد بين المسيحية والإسلام. فمن يستطيع أن يشارك في هذه العملية أحسن من جيراننا؟ ينبغي لنا أن «نقتل» بشكل نهائي روح الحروب الصليبية وردّ الاعتبار للإسلام في أوروبا وإقامة علاقات جديدة بين الإسلام واليهودية والمسيحية في البحر المتوسّط.

سوف تكون هذه المصالحة نقطة انطلاق لنظام جديد. يجب القبول بالعالم العربي الذي أحاطت به كلّ المعاصي بفعل بعض الظروف التاريخية وبعض المصالح، كشريك كامل الحقوق.

هذا التغيير يتوقّف علينا. لكنّه يتوقّف بشكل خاص على أوروبا نفسها. فأين نجد الشريك الجادّ النزيه الذي يمدّ لنا يد المساعدة؟ إنّ القوّتين العظميين المتورطتين في سباق التسلح النووي والمنافسة فيما بينهما هما أكثر اهتماما بتفوّقهما الاقتصادي وهيمنتهما السياسية من اهتمامهما بدخول العالم الثالث في اللعبة.

في رأيي أنّ، أوروبا والعواصم الاستعمارية القديمة هي أحسن شريك لنا. فقد هدّأت هذه الدول من غلوائها وأخفت مخالبها. وبلغت أوج التقدّم العلمي والتكنولوجي وتمتلك ما يعوزنا. ونحن نملك ما يعوزها، ومعها يمكننا أن نقطع شوطا طويلا دون خشية فقدان حرياتنا.

روسيا والعالم الإسلامي

بالنسبة إلى الحكم الثوري، بات الاتحاد السوفياتي أوّل شريك للجزائر. إذا كان هذا التعاون يندرج ضمن إطار «الثورة الماركسية» المشتركة بين البلدين، فهو تعاون منطقي. لكن إذا كانت لديهما ايديولوجيات متباينتان، فلن يكون هذا التعاون منطقيا على الإطلاق.

خلال زيارة لي إلى موسكو، احتفظت من سفري بذكريات استقبال حارّ للغاية. روسيا أمّة عظيمة معروفة بكرمها وإنسانيتها. وقد خرجت منتصرة من الحرب الكبرى لأنها بقيت روسية. لم يكن لصدمة سنة 1941 إلا عداء النازيين والشيوعيين، وإنما كان هناك أيضا عداء الجرمان والسلاف.

لم يكتشف ستالين شيئا جديدا. كلّ إستراتيجيته السياسية ارتكزت على إستراتيجية «بيار الأعظم»[1] و «كاترين الثانية»[2] : التوسّع باتجاه بحر الشمال والتمترس ناحية الغرب وإبعاد الإسلام ناحية الجنوب ومحاولة إيجاد موطئ قدم في البحر المتوسط.

من هنا، ضمّت دوّل البلطيق، أي أستونيا وليتوانيا وليتونيا. وفي الوسط، نصب حاجز يتكوّن من الدول التي تسبح في فلكهم، أي بولونيا وألمانيا الشرقية وتشيكوسلوفاكيا والمجر وبلغاريا ورومانيا. ومنذ الآن، أصبحت الأراضي التي انتهك نابليون الأوّل وهتلر حرمتها في منأى عن كلّ مفاجأة[3].

في آسيا الوسطى، تعرّض السكّان المسلمون لبطش سياسته المادية للدين. كما تعرّضت المسيحية واليهودية والبوذية للقمع لكن ليس بنفس الدرجة. بحيث تمّت علمنة الشعوب المسلمة بشكل منتظم ولم يتوقّف الغزو الماركسي عند حدود أفغانستان وإيران. ومع ذلك، لم يتمّ إبعاد جميع المخاطر.

باتّجاه الجنوب، لم يتحقّق حلم روسيا المقدسة. واصطدم ببطولة الشعب التركي الذي دافع بكلّ بسالة عن أراضيه واحتفظ بمفاتيح نهر الدردنيل بحوزته ومغالق البوسفور في قبضته.

لكن روسيا لم تتخلّ عن أحلامها التوسّعية حتى تصبح قوّة متوسّطية. إنها تعتقد بذلك تستطيع أن تضمن لنفسها حضورا بهذه المنطقة من خلال تصدير إيديولوجيتها وتسخير الشعوب.

---

1. Pierre le Grand – بيار الأعظم (1672 – 1725) كان أحد قياصرة روسيا منذ 1682. أصبح أوّل إمبراطور للإمبراطورية الروسية في 1721 حتى وفاته في 1725. أدخل إصلاحات عميقة إلى بلاده واتّبع سياسة توسّعية حوّلت روسيا إلى قوّة أوروبية

2. Catherine II – كاترين الثانية (1729 – 1796)، المولودة سوفي أوغوستا فريديريكا، هي إمبراطورة كانت لها السلطة المطلقة على كامل بلاد روسيا ابتداء من 1762.

3. خلال زيارتي إلى موسكو، أطلعني الوزير الأوّل «كوسيغين» على المكان الذي أوقفت فيه جيوش هتلر وقال لي: «مثل هذا التهديد يطاردنا. ولا يجب أن يتكرّر إطلاقا».

في مرحلة أولى راهنت روسيا على إسرائيل. في منظمّة الأمم المتحدة، عام 1948، صوّتت مع الديمقراطيات الشعبية لصالح نشأة إسرائيل. وكانت تعتقد أيضا أنّ الجامعة العربية قد كانت أداة بين يدي بريطانيا وكان لا بدّ أن تفرض عليها دولة غير عربية. ثمّ، بعدما أدركت بأنّ إسرائيل قد تشيّعت للولايات المتحدة، غيّرت سياستها بإدانة «الصهيونية» التي كانت راعية لها.

عندئذ، توجّهت إلى الشعوب السائرة في طريق النموّ بحثا عن شركاء جدد لها بحيث تستطيع أن تكسب تأييدهم لصالح الاشتراكية وانقيادهم لها بما يكفي لضمان حضورها الأبدي في البحر المتوسّط وفي أفريقيا.

بهذا الشأن، يحقّ لنا أن نصف دون مبالغة البلدان الإسلامية المنضوية تحت لواء «الاشتراكية» «ببيادق» وضعت في خدمة سياسة الاتحاد السوفياتي التوسّعية. ولهذا، أصبحت تشكّل ثغرة في المعسكر الإسلامي. ومن هنا، أشعر شخصيا بأنّ روسيا يمكن لها أن تكون شريكا جدّيا والاتحاد السوفياتي شريكا خطيرا لكونه لا يجلب إلا البذور المضرّة بالإسلام. فمن لا يحترم الإسلام لا يستطيع أن يحبّ المسلمين.

الصين، اليابان وآسيا

مع دخول الصين الجديدة إلى المشهد السياسي العالمي، دخلت آسيا في طور التكوّن. لكن علينا أن نتريّث. أحداث كبرى تنتظرنا في هذه المنطقة. اليابان بتقنيته والهند وباكستان بتعداد سكانهما وجهودهما الصناعية وأندونسيا بموقعها الجغرافي والصين ببعد سياستها العالمي، كلّها مدعوة إلى لعب دور لا يقل أهمية عن دور أوروبا الغربية على المستوى الدولي.

في نظري، تعدّ نهضة اليابان من جديد الذي أصبح ثالث قوّة في العالم ودخول الصين الجديدة إلى المشهد السياسي العالمي من أبرز الأحداث التي طبعت عالمنا المعاصر.

الصين هذه أحترمها احتراما كبيرا حتى ولو كانت ماركسية وأنا لست ماركسيا. الصينيون معروفون بالكياسة وروح التعاون والإيثار. وأنا في مطار بيكين، عشت أعظم إحساس في حياتي. وجدت نفسي آنذاك جنب «شوان لاي»[1] ودون أن أنتبه إلى ذلك، دوّى فجأة صوت نشيدنا الوطني تحت سماء صافية. عندئذ، هزّتني رعشة قوية وتطلّب منّي بعض الوقت حتى أتمالك نفسي من جديد.

مساعدة الصين نموذج فريد من نوعه. في كلّ الأحوال، الصينيون لا يشهرون ماركسيتهم. إنّهم يحترموننا بقدر ما نحترمهم. هذا ما رأيناه في الجزائر. لقد ترك لنا نابليون قولا مأثورا عن هذه الصين: «عندما تستيقظ الصين، سيرتعش العالم». أمّا الان فلن يرتعش العالم لأنّه تغيّر منذ القرن الثامن عشر. لكن متى بدأ مليار من البشر الزحف، فسوف تتغيّر آسيا وحتى الشرق الأوسط.

قد تتعزّز هذه المساعدة وتنمو أكثر فأكثر. أمّا اليابان فقد أضحى تصنيعه قدوة لسائر بلدان آسيا وأفريقيا. قوّة صناعته مذهلة حقّا ومتى بلغت الصين والهند هذا المستوى من التطوّر، فإنهما سوف يحجبان الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي.

هناك شعوب أخرى، مثل الهند وباكستان وفيتنام وأندونيسيا وتايلندا، هي الآن تسير بالتأكيد نحو المزيد من الرقي والرفاهية.

في أفريقيا، هذا التقدّم أكثر بطء. الأفارقة تعرّضوا لاستعمار كان من الاستبداد والشراسة بما جعلهم يعانون إلى اليوم آثار جروحه العميقة. توجد شعوب أمريكا اللاتينية في الوضعية نفسها. هكذا، سوف تنطلق البلدان السائرة في طريق النمو في مسيرتها وسوف تجنّد كلّ إرادتها حتى تخرج من سباتها العميق الذي أوقعها الجهل فيه. ومن أجل بلوغ هذه الغاية، لا بدّ لها أن تجدّد الصلة بالعلم.

---

1 (1898-1976)، كان الوزير الأوّل لجمهورية الصين الشعبية (1949-1976)، تاريخ وفاته. وكان في الوقت نفسه وزيرا للشؤون الخارجية وغادر هذا المنصب في 1958.

الأمم المتّحدة

سبق لي أن عبّرت عن رأيي[1] في منظمة الأمم المتحدة. ولم أغيّر رأيي. فإن لم تتزوّد هذه المنظمة بالوسائل والإمكانات الضرورية، فإنها سوف تبقى منظمة بدون فعالية ومنتدى دوليا كثير الكلام وعقيم الفعل. إننا نتذكّر تماما عجز الأمم المتحدة أمام المشكلة الجزائرية. آنذاك، لم تنضمّ إلى تقرير المصير إلا عندما نادى بذلك الجنرال «دي غول» باسم فرنسا. والأمر لا يزال على هذه الحال.

عندما يتعلّق الأمر بمصالح الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي، تكتفي منظمة الأمم المتحدة بالتعبير عن أماني البرّ. ويأتي إليها قانونيون يعملون تحت الأوامر لتبرير سوء نواياهم على الخصوص. إذا تدخّلت منظمة الأمم المتحدة في كوريا الجنوبية، فلأنّ هيبة أمريكا ومصالحها ترتبط بهذا البلد. وإذا كانت قد ساهمت في أكتوبر 1956 في إنقاذ استقلال مصر من العدوان الثلاثي لفرنسا وإنجلترا وإسرائيل عليها، فلأنّها وجدت في ذلك توافق مصالح الدولتين العظمتين.

بالمقابل، تحاشت تماما فرض تطبيق القرار المصادق عليه عام 1947 الذي يعترف بالحقوق الوطنية للفلسطينيين. وسوف تتجنّب كذلك التدخّل في شؤون أوروبا (مشكلة الباسك، كاتالونيا، إيرلندا الشمالية، توحيد الألمانيتين، الخ...) وعندما يتعلّق الأمر على العموم بالشعوب المتخلّفة، فإنها تبذل قصارى جهدها من أجل التدخّل. وبالنسبة إلى هذه الشعوب، دائما ما تكون منظمة الأمم المتحدة على استعداد كامل للتدخل وفرض العقوبات عليها وسنّ القوانين.

سوف يظلّ تحكيم منظمة الأمم المتحدة خرافة ما إن استمرّت منافسة الدولتين العظميين حول أصوات الجمعية العامة وهما يضعان نفسهما ضمن إطار مصالحهما الخاصة. عندئذ، يصبح الاستناد إلى قرارات هذه الهيئة كالنفخ

---

1. أنظر تشريح حرب – Autopsie d'une guerre «الفجر – L'Aurore» – دار النشر غارنيي، باريس 1980 «الجزائر للكتب»، الجزائر 2011.

في الهواء. وسوف يظلّ الحال هكذا ما لم تتوفّر منظمة الأمم المتحدة على قوة ضاربة تكون قادرة على فرض احترام قراراتها.

لا يزال السلم العالمي المقرون بالعدل لصالح الشعوب الصغيرة بعيد المنال.





رابعا

حقائق دائمة في ظلّ التطوّر

التعليم قبل أيّ إكراه

«لنعد إلى الماضي، فسوف نجد المستقبل فيه»

حكمة فيتنامية

« لا يمكن فعليا لأيّ تقدّم بشري أن يكون إلا تقدّما شاملا ولأنّ الإنسان لا يريد أن يرتقي إلا بجزء من نفسه، فإنه سوف ينهار تماما. الأشياء التي لا نريد أن ننهض بها إلى مستوانا، ستهوى بنا إلى مستواها. وإن لم يطر الجسم بجناحه، فالجناح هو الذي سيزحف مع الجسم. وهنا يقع حل عقدة الوهم»

غوستاف تيبون، سلّم يعقوب

Gustave Thibon - *L'échelle de Jacob*

في السياسة، يجب على الخصوص أن نتنبأ بما يمكن أن يحدث بعدنا. الحاضر لا شيء إن لم يمهّد للمستقبل. بعد الحقبة الاستعمارية، وجدت أفريقيا وآسيا نفسهما في منعرج تاريخي حاسم. إنهما يستيقظان على حريّة التصرّف في مصيرهما. ويقومان بتشييد مجتمعيهما من أجل حماية استقلالهما والذود عنه.

هذه المنافسة المثيرة تطرح نفسها بالنسبة إلى الشعوب الإسلامية. كما نفرض عليها التغيير في ظلّ الاستمرارية؟ ويطرح هذا التغيير نفسه وفق الشروط الآتية: زعزعة رواسب قرون الانحطاط، تجديد الصلة بعصر الأنوار والخروج بكل عزم من العصور الوسطى من خلال مواكبة التطوّر العلمي والتقني والاستسلام للتخصّصات العلمية والتقنية الحديثة.

يتوجّب على الدول الإسلامية، جمهورية كانت أم ملكية، أن تقطع الصلة بالأحلام القديمة التي تعزّزت في رحم مذاهب علم الكلام وفي رحاب ذكريات الحضارة العريقة خلال عصر الأمجاد. كما يتوجّب عليها أن تلج مرّة واحدة وبأسرع وقت واقع العصر الحديث.

تأخّرنا العلمي والتقني كبير للغاية. لوقت طويل جدا، اكتفينا بالتأمّل والحنين إلى الماضي والعاطفة. عداؤنا للأمم الأوروبية كلّفنا ثمنا باهظا بسبب جهلنا عدم وعينا.

على البلدان الإسلامية أن تركّز جهودها على تربية النشء. فضمير الطفل هو الذي يعكس الصورة المسبقة لضمير المواطن. في فجر الإسلام، قال الخليفة علي رضي الله عنه لرفاقه:

«علّموا أولادكم بغير علمكم لأنهم ولدوا لزمان غير زمانكم».

لكن أيّ تربية وأيّ تعليم نلقّنه أبناءنا؟ للأسف، لقد تحوّلت آسيا، بعدما كانت تلك الأرض التي كان ينبض فيها قلب الإخاء القديم للعالم، إلى أرض للحكم المستبد. ومنذ قرون، أسّس الملوك حكمهم على تخويف رعاياهم وترهيبهم.

في أفريقيا، توصّل الاستعمار إلى النتائج نفسها بحيث حلّ «الخوف من الدركي» محلّ الطاعة لله. إذن، هناك إرث ثقيل من الخوف علينا أن نتحمّله. وهذا هو الإرث الذي ينبغي لنا أن نحطمه إن كنّا نريد أن نكون شعوبا قوية. لا شكّ بأنّ النظم التي تبني قوّتها على التعسّف والخوف هي نظم تدير ظهرها للمروءة الحقيقية. وليست الثروات وآليات الحرب هي التي تضمن حماية البلد، وإنما الضمير الجماعي لسكّانه ولكلّ شرائحه الاجتماعية هو الذي يضمن ذلك بفضل تحقيق تقدّم شامل.

لا يمكن كسب هذا الضمير بالشعارات والتصفيقات ومداهنة رجال السلطة. بل يجب أن يكتسب على مقاعد المدرسة وحول مائدة الأسرة.

بالأساس، لا نصنع مستقبلنا إلا بفضل تطوير التعليم والثقافة. لكن هناك سؤال يطرح نفسه منذ البداية: أيّ تعليم وأيّ ثقافة؟ كثيرا ما نتحدّث في أيامنا هذه عن الحرية والديمقراطية، لا سيما في أنظمة بلا حرية ولا ديمقراطية.

بأي طريقة يتلقى الطفل في الجزائر المبادئ الأوّلية في هذا المجال؟ كيف عداده لبلوغ هذه الحرية وممارستها وتحمّل المسؤولية المترتبة على ذلك؟ لنا أن نجيب على هذه الأسئلة بكل موضوعية مع مراعاة الحواجز التي التغلب عليها. وعلينا في البداية التغلّب على مركّب نقص المغلوب لوك. ولهذا، لا ينبغي لنا أن نغفل ماضينا وما بقي من آثاره.

نحن في شمال أفريقيا التي كانت الهيمنة الأجنبية نصيبنا الوحيد فيها، بخصوص في الجزائر. فهل هذا قدر محتوم؟ بل في استطاعتنا أن نحطم قيود حضارات الدخيلة. وكل ذلك كان يتوقف علينا فحسب. ولم نفعل. عقب حضارة الفرنسية، ها هي الاشتراكية على طريقة «فيدال كاسترو»، وبعد فرنسيين، اعتمدنا الاشتراكية الستالينية. وكما فعل أسلافنا في الماضي، رمينا بإيضا كلّ ما تركه المحتل من أعمال لنتكيّف مع نموذج مجتمع جديد.

متى إذن يمكننا أن نكون صورة لأنفسنا ونعيش برؤوس مرفوعة مسلمين مغاربة ونتغذّى من ثقافتنا الأصيلة ونكتشف بأنفسنا طريقة حياتنا خاصة بنا.

سواء حكمنا الأجانب بشكل مباشر أو بواسطة أشخاص وسطاء فهذا لا يغيّر في الأمر شيئا: «الجزائر الاشتراكية» هي على صورة «الجزائر الفرنسية». كلتاهما غريبتان على الجزائر المسلمة. إحداهما فرضت علينا بالقوة، والأخرى فرضت علينا من الداخل بواسطة حكم فردي متواطئ مع إيديولوجية غريبة علينا تماما.

من البديهي أن الجزائر الجزائرية كجزء لا يتجزّأ من المغرب الإسلامي، لا تبنى إلا بالعودة إلى قيَم الإسلام وإلى ليبرالية النظام. سوف تكون هذه الجزائر من صنع جميع الجزائريين بعد استشارتهم استشارة حرّة.

في الوقت الحالي، ما زالت الجزائر في ظلام الليل. ولن تشرق الشمس على بلادنا ما بقي المواطنون تحت سيطرة حكم استبدادي لا يمثّل إلا نفسه، حكم بلا جذور لا في الحاضر ولا في الماضي.

علينا أن نقول ذلك بصوت عال: الإسلام أسمى من الماركسية. إنّه يعرف الحرية والمساواة والديمقراطية. لقد تعلّمنا ذلك في زماننا داخل الأسرة والمدرسة. المعلمون والأساتذة الممتازون الذين علّموني ما تعلّمت،

أي طاعة الوالدين واحترام الجيران واحترام النفس هم الذين علموني أيضا معنى الحرية والنضال في سبيل الحقّ والعدل.

كدليل على الديمقراطية الإسلامية، عادة ما ردّد علينا أحد المعلّمين الشباب في أحد دروسه الدينية أقوال خلفاء الإسلام الأوائل: «بعد تزكيته في رتبة الخليفة، تحدّث أبو بكر رضي الله عنه بهذه العبارات يقول: «أمّا بعد أيها الناس، فإنّي وليت عليكم، ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أخطأت فقوّموني، ولا تأخذكم في الله لومة لائم، ألا إنّ الضعيف فيكم هو القويّ عندنا حتى نأخذ له بحقه، والقوي فيكم ضعيف عندنا حتى نأخذ الحقّ منه طائعا أو كارها، أطيعوني ما أطعت الله فيكم فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم.»

كما قال الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، حينما تولّى الخلافة: «أيها الناس إني وليت عليكم ولست بخيركم، فإن رأيتموني على حق فأعينوني، وإن رأيتموني على باطل فقوّموني». فردّ أحد الحضور: «والله أقوّمك بسيفي» - فقال سيدنا عمر «رحم الله هذا الزمان إن وجد فيه من يقوّم عمرا بسيفه».

لا ندري من يثير إعجابنا أكثر، خليفة ديمقراطي لا يخشى سيف رفاقه أو مؤمن كانت له الشجاعة ليذكّر الخليفة بأن لا أحد يعلو فوق القانون.

مثل هؤلاء العظماء من تاريخنا هم الذين بنوا الإمبراطورية. ولم تكن هذه الإمبراطورية لتمتدّ من حدود الصين حتى جبال البرانس إلا لأنها كانت متماسكة بلحمة الإيمان والقيم الروحية للإسلام. عندما يقوم في الوقت الحالي المعلّمون، استجابة للأوامر، بتسريح أبنائنا من دروسهم للتصفيق على فيدال كاسترو والتغنّي بفضائل «الثورة الزراعية» الغائبة، فإنهم لا يقومون بذلك لإعداد النشء ليكونوا رجالا، بل ليكونوا خدما. إن التعليم الذي يلقّن هم لا ينمّي لديهم حسّ النقد ولا الذكاء. حكم عليهم ألا يكونوا سوى أبواقا طيّعة لا يصلحون إلا قرابين يقدّمها هؤلاء المدرّسون لعبادة الشخصية حتى قبل ولادتهم.

سبق أن زرت بعض الديمقراطيات الشعبية ولم ألتق فيها بأي أثر للسعادة والبشاشة على وجوه الناس. ونحن نقتدي بهذه الديمقراطيات، فإننا لا نحكم على أنفسنا إلا بالوقوع في المصير نفسه. لكن أحسن ما نقوم به

هو الاقتداء بالخلفاء الراشدين واستعادة فضائل حضارتنا. لا داعي لتعقيد الحياة للمواطنين. أحسن الأمور أبسطها.

عندما كان التلاميذ يسلّمون واجباتهم عن إنجلترا للأكاديمي الفرنسي الشهير «فاردیناند برونيتيي» Ferdinand Brunetière، كان دائما يطرح عليهم نفس السؤال: «هل ذكرتم بأنّ إنجلترا جزيرة؟».

بالفعل، الطابع الجزيري لإنجلترا هو الذي يحدّد تاريخ هذا البلد. يمكننا أن نسقط هذه الملاحظة على الجزائر. فتاريخ الجزائر لا يرتبط إلا بوضعيتها الجغرافية، إذ تشكل مع تونس والمغرب «جزيرة المغرب الكبير» التي تعرّضت منذ العصور الغابرة لنفس المؤثرات وهي اليوم تؤكد انتسابها إلى العالم الإسلامي.

إن أردنا أن نبني شيئا صلبا، مستداما وله معنى، فلا يمكننا أن نتصوّر مستقبل بلادنا إلا ضمن هذا السياق.

الحرية هي أهمّ عنصر يدخل في بناء هذا الصرح. الحرية هي أساس العقيدة الإسلامية. والويل لبلادنا إن رجعت إلى عادات الدولة الجزائرية عام 1830 عندما كان الانكشاريون يحلّون خلافاتهم عن طريق الانقلابات وحدّ السيف.

لهذا بات من الضروري بناء الجزائر الحديثة على أسس احترام الحريات العامة ومساواة كل المواطنين أمام القانون. بعد الخبز، الحريّة هي أغلى ما يملكه الإنسان. والحريّة هي التي تسمح للشعوب بالتفتّح والرقي وترسيخ شخصيتها وإنجاز أعظم الأشياء وأجملها. وفي كنف التنوّع وحرية التعبير تنطلق الشرارة الأولى مصدر النور. وتتكوّن النخب وتبرز في النقاشات الحرّة لمصلحة البلاد العليا. الحرية هي للإنسان كالنور للنبات.. الغذاء الحيوي لكل الحياة.

التنوّع مصدر للثراء. لنتمعّن حكمة الشاعر الفرنسي الشهير «فولتير» من خلال هذه المقولة: «هناك من هو أذكى من فولتير.. إنه الشعب السيد». الرئيس «ماو تسي تونغ» لا يستطيع بدوره أن ينكر أبوّة هذا البيان المليء ببعض الصور الغنائية والحقائق الأبدية: لتتفتّح أزهار كلّ الفصول المائة معا.. ولتتحاور مختلف المدارس الفكرية المائة مع بعضها البعض.»

الإنسان هو الرأسمال الحقيقي لأيّ بلد كان. ومن أجل إدارة أي بلد وإثرائه، لا بد من وجود الإنسان، كلّ الإنسان بكامل شخصيته ومعارفه ومسؤولياته. ومتى تم تقييد هذا الإنسان بالقميص الجبري وتمّ إرغامه على السكوت، تقوّضت قدراته وإمكاناته.

الذكاء والمؤهّلات والرأي السديد أحسن ما يتقاسمه العالم من ممتلكات، ولحسن الحظ، لا أحد يستطيع أن يحتكر ذلك.. لا طبقة اجتماعية ولا مجموعة من البشر ولا أيّ شخص من الأشخاص.

في بلد، مثل الجزائر التي تعرّضت لهيمنة أجنبية طويلة والتي انتزعت حريتها بفضل تضافر جهود الجميع، الإرادة الشعبية المعبّر عنها بكلّ حرية هي مصدر أيّ شرعية. والاقتراع العام هو صاحب السيادة الفاصل.

الأنظمة التي تدّعي أنها ديمقراطية والتي ترفض أو تزوّر اختيار الشعب وقراره، والتي تستبدل هذا الخيار بالاحتيال والقوّة لا تمتّ بصلة للديمقراطية.

الإكراه إفقار. الحكم على الشعب بالسكوت والمكائد والتعفّن، يؤدّي حتما إلى المؤامرات والجرائم.

سيقول قائل إن الشعوب المستعمرة قد بقيت بشكل عام في حالة من التخلّف وإنها في مثل هذه الظروف أصبحت غير قادرة على ممارسة سيادتها وإنّ ممارسة الاقتراع العام قد تؤدّي إلى الفوضى.

هذا غير صحيح. وليس جديدا أيضا. خلال الاستعمار، المستعمرون استعملوا الحجّة نفسها. كان يقال حينذاك، «لم يكن الأهالي في حاجة إلى الحقوق السياسية. ولا حاجة لهم إلا للعمل والخبز».

الجزائري فنّد هذه الحجّة تفنيدا قاطعا. إذ استطاع هذا الجزائري، وهو يستعمل ورقة تصويته استعمالا سليما، أن يختار ممثّلين مقبولين له عرفوا كيف يدافعون عن طموحاته المشروعة. وبفضل حيز حرية التعبير الضيّق الذي ترك لنا، استطاعت الدعاية الوطنية أن تجنّد الجماهير الشعبية وتسلحها في سبيل الكفاح وتهيّئها للنضال في سبيل استقلال البلاد. لم يكن أوّل نوفمبر وليد الصدفة بل جاء نتيجة لذلك.

ما كان صحيحا أمس، لماذا لا يكون كذلك اليوم؟ هل الاستقلال رديف للتراجع؟ أم توجد بيننا طبقة من الرجال من سلالة أسمى وجدت لتتولى دائما مسؤوليات السلطة دون سواها؟

قد يقول قائل الحرية لا تعني شيئا بالنسبة لفرد جائع. لكن أنا أقول: «لها معنى واحد». يكفي أنها تسمح لهذا الإنسان أن يصرخ في كل مكان بأنه جائع دون الخوف من الاعتقال أو من إيجاد نفسه في مستشفى للأمراض العقلية.

الحرية هي سلاح المستضعفين الوحيد.

*

بعد رحيل الفرنسيين بكثافة، ممن كانوا يديرون البلاد، وجدت الجزائر نفسها في وضعية سفينة هائمة بلا طاقم. كان يخشى وقوع ما هو أسوأ. بالفعل، النظام الاستعماري لم يحضر أيا منا لممارسة الحكم. عند الاستقلال، تمت مواجهة عجز الإطارات في الإدارة بكل الوسائل المتاحة.

لم نفعل شيئا للاحتفاظ بالإطارات الفرنسية القليلة التي خاضت الكفاح معنا وأرادت البقاء في الجزائر. ومنذ ذلك الوقت، قمنا بتدريب عدد من الإطارات بتسرّع. وكان هذا التدريب في تلك الفترة يفرض نفسه بشكل استعجالي وحتمي حتى ولو كان ناقصا. إنه الهدف الأساس الذي يحظى بالأولوية مقارنة بكل الأهداف الأخرى. الاستعانة بالتقنيين الأجانب، الوافدين نسبيا، ما هو إلا حل مؤقت. لا بدّ لنا أن نقوم بتدريب تقنيينا، إلا إذا كنا نريد أن نشاهد الجزائر وهي تتحوّل إلى «مستعمرة عالمية». لا أحد يستطيع أن يعالج جروحنا غيرنا. وأين ندرّب إطاراتنا إن لم يكن في أوروبا؟ في البداية، في فرنسا وفي البلدان التي نعرف لغتها. والمقصود من الإطارات تشكيلة كاملة من العامل المتخصّص إلى المهندس وحتى الإطار السامي.

رئيس العمال أو رئيس الفريق لا يقلّ أهمية عن أي تقني متعدد التخصصات. لهذا لا يمكن للاتصالات بأوروبا، وعلى كل المستويات، إلا أن تكون اتصالات مثمرة.

في أيامنا هذه، لا يمكننا أن نتحدّث عن التقدّم دون التفكير في الحضارة الأوروبية. أوروبا تحوّلت إلى مخبر ضخم للمعارف الإنسانية. فلنتعلّم من هذه المدرسة بكل جدّ كما فعل اليابانيون خلال القرن السابق. لا داعي لنا

تغذية مرارتنا ومواصلة اجترار المظالم العديدة التي تعرّضنا لها. ألم يكن ربّما الاستعمار شرّا لا بدّ منه؟ علينا أن نحوّل ما تمّ تدبيره ضدّنا لصالحنا.

في البداية، ينبغي لنا أن نلفت انتباه شبابنا إلى أضرار التقليد الأعمى والانتحال. لأوروبا أشياء أخرى تقدّمها لنا بدلا من حضارة «الاستهلاك» والمخدّرات والكحول والجنس والفجور والاحتجاجات العقيمة والعنف من أجل العنف.

التعلّم في مدرسة أوروبا يعني قبول المرور بنفس مراحل الدراسة والعمل التي مرّت بها أوروبا نفسها وإدراك حجم المهمّة الصعبة لكن المثيرة للغاية التي يتعيّن علينا أداؤها من أجل مواكبة ركب الأمم الأخرى وإعطاء بلدنا وجها آخر من خلال القضاء على الاسترقاق والجهل والبؤس.

العمل هو مفتاح هذا التطوّر الطموح. وهو أيضا الثروة الأصيلة والوحيدة لأيّ شعب. لا يمكن لأيّ شعب أن يكون ثريا إلا بفضل عمله الخاصّ وإبداعه الخاص أيضا.

لم تنهض ألمانيا واليابان وروسيا في ربع قرن من آثار الخراب المتراكم خلال الحرب العالمية الثانية إلا بفضل العمل. لكن لم يكن ذلك أمرا بسيطا! هذا العمل أيضا هو الذي سمح لأوروبا بالتقدّم على القارات الأخرى بشكل كبير. عندما نقوم بدراسة ماضي الأمم الأوروبية، يصيبنا الذعر لهول الجهد الذي بذلته هذه الأمم. منذ الآلة الحاسبة لباسكال (1623-1662) والمحرّك البخاري لدينيس بابان (1647-1714)، شارك الجميع، رجالا ونساء وأطفالا، بفضل عملهم، في تراكم الثروات ودخول أوروبا الحضارة الصناعية. لا كسب بلا عناء وجهد.

اليوم، البشرية جمعاء استفادت من هذه الحضارة وجنت منها فوائد كبيرة. في كلّ المجالات فقد أحدثت تطوّرات مذهلة للغاية غيّرت الظروف المعيشية للإنسان وحقّقت لنا حياة أفضل وأطول. وأصبحت الأوبئة التي كانت تنتشر خلال القرون الماضية أكثر ندرة وأقلّ خطورة بفضل تطوّر الطبّ. تمّ التغلّب على المسافة، وسهّل الهاتف والتلغراف والراديو والتلفاز والطائرة حركة المعلومات وتواصل الشعوب وتقريب القارات بين بعضها البعض. توجد الآن نزعة إلى التلاحم بين البشر في مختلف أنحاء العالم. وأصبحت هناك فرص كثيرة لتحقيق التوازن العالمي بين هذه الأمم. وإذا

توصلت هذه الأمم إلى التعقّل والتدّبر في بقائها، توفّرت الشروط الملائمة لتشكيل مجموعة دولية كبرى تنعم بالسعادة والسلم.

هكذا، يعدّ العلم، باستثناء التهديد النووي، أملا كبيرا البشر.

*

الشعوب التي بقيت، على غرار شعبنا، في طور الحياة الرعوية والإنتاج الزراعي، تميل في بعض الأحيان إلى التقليل من شأن التطوّر والرخاء اللذين تدينهما لأوروبا واللذين كلّفا هذه الأخيرة ثمنا باهظا. إننا نستعمل الهاتف والطائرة والراديو والتلفاز كما لو كانوا مجرّد ثمار تنمو على شجرة فاكهة حسبنا قطفها بلا عناء.

هذا يؤدّي بي إلى التفكير بأننا لو أردنا في المستقبل القريب أن نساهم في إثراء الرصيد العلمي الذي نتمتّع به كلّ يوم، فإنه ينبغي لنا في البداية أن نتعلّم الاجتهاد والجدّ في العمل كما كان اليابانيون يفعلون في القرن التاسع عشر. ينبغي لنا أن نتحلّى بالتواضع وأن نعترف بأن الطريق سيكون طويلا وشاقا. لكن أيضا واقعيين ولنكف عن الحلم ولنبتعد عن العاطفة ! لكن ألا يؤدّي الكبرياء في غير محلّه واللاّوعي دورا أخطر بكثير؟

يتعيّن على شبابنا، بعد تحرّره من أغلال الاستعمار وعنصريته، أن يسعى إلى تحقيق طموحات سليمة من أجله هو ومن أجل وطنه. فلتمنحنّه الحرية أجنحة يبلغ بها ذروة المعرفة والعلم !

اليوم، كلّ الآفاق مفتوحة أمامه. بفضل عمل منهجي وعقلاني، يمكنه أن يدخل ميدان المنافسة مع شباب العالم. لقد أصبح كل شيء في متناوله، أرضا وبحرا وجوّا شريطة أن يلتزم بقواعد الانضباط الضرورية وقوانين الجهد وأن تستقطبه المكتبات أكثر من المقاهي والمخابر أكثر من قاعات العروض المسرحية والسينمائية !

من البديهي أن تعليم اللغة العربية أمر ضروري. هذه اللغة هي لغتنا. وهي الرباط بين العالم العربي وسائر المجموعة الإسلامية. لكن في الوقت الحالي، ودون إضاعة للوقت، توجد في متناول شبابنا أداة ممتازة، هي اللغة

الفرنسية، ليغرف بها ودون انقطاع من منجزات أوروبا العلمية. يمكن أن نحصّل العلم، كالصلاة، بواسطة كلّ اللغات.

بين ابن سينا وباستور، أكثر من ثمانية قرون. على مستوى التطوّر العلمي والفهرسة والمصطلحات العلمية، لا يمكن للّغة العربية أن تسدّ هذه الهوّة في يوم واحد. بالنسبة إلى الفترة الانتقالية، يجب أن تبقى اللغة الفرنسية اللغة الثانية حتى تعود اللغة العربية من جديد، وفي وقت نتمنّى أن يكون قصيرا، محرّك العلوم والفنون، كما كانت في العصور الوسطى.



لقد أسهبت في الحديث عن التقدّم العلمي لأن الدين الإسلامي من الأديان النادرة التي تجعل من دراسة العلوم الوضعية فرضا كفرض الصلاة.

لكن في أيامنا هذه، توسّع مجال تطوّر العلوم والتقنيات المرتبطة به توسّعا لا نهاية له حتى أصبح الإنسان يواجه خطر التحوّل إلى عبد لاكتشافاته الخاصة. ألا يهدّد غزو التطوّر العلمي هذا التوازن الاجتماعي؟

العلم ليس كلّ شيء. عند مشارف التطوّر العلمي، تقع الطبيعة وقوانينها والتصورات الميتافيزيائية وألغاز الحياة. هناك أسئلة لا تزال مطروحة ولم يجد العلم إجابة لها بعد. كيف نشأت الحياة على سطح الأرض؟ من أين أتى الإنسان؟ ماذا يفعل؟ وإلى أين يذهب؟ الإجابات التي حاول العلم أن يردّ بها على هذه التساؤلات ليست مرضية. بل تظلّ كلّها إجابات افتراضية وغير كافية.

في هذا المجال مثل مجال البحث عن السعادة، تحتفظ الشعوب بمجموعة من المعتقدات التي لها قيمة أكيدة حتى ولو كانت من وحي الشعوذة والتجربة. تتأبّد هذه المعتقدات من جيل إلى آخر وتشكّل تراثا ثريا للغاية.

إن أتى العلم على هذا التراث، فإنه قد يأتي على الإنسان نفسه وربّما ستصبح الأرض غير قابلة للحياة؟ بالفعل، هناك سؤال يطرح نفسه: هل سيكون للإنسان القدرة على التحكم في العلم والتقنية أم سوف يقع ضحية لتطورهما؟[1]

في هذا الشأن، كتب عالم نمساوي آخر، «كونراد لورانز»[2] وهو حائز جائزة نوبل، صفحة ذات بعد اجتماعي كبير: «من الخطأ الاعتقاد بأنّ ما يمكننا أن ندركه عقلانيا أو ما يمكننا أن نثبته علميا يشكّل أهمّ رصيد علمي للإنسان. هذا الخطأ آثار وخيمة تؤدّي بالشباب «المفكر» إلى التخلي عن كنوز الحكمة والمعرفة الهائلة التي تزخر بها، دون استثناء، تقاليد الثقافات القديمة وتعاليم أديان العالم الكبرى. من ينكر أيّ قيمة على الحكمة وأيّ دلالة على التقاليد، يقع لا محالة في خطأ يكون خطيرا بقدر ما نعتقد بأن العلم قادر، ولو بطرق عقلانية، على بعث حضارة كاملة من العدم بكل ما تتضمّنه من مضامين. إنه من الغباوة أيضا أن نعتقد بأن علمنا كاف لتحسين خلقة الإنسان بطريقة اصطناعية من خلال إجراء العمليات على الجينات الوراثية له»[3].

لا يمكن للمرء أن يكون أكثر وضوحا وجلاء من ذلك. باختصار، لا بدّ من حماية الرصيد التقليدي لكلّ شعب باعتباره يشكّل كنزا ثمينا.

في الجزائر، يوجد شعب عربي بربري، غني بازدواجية تقاليده العائلية الديمقراطية والاجتماعية العريقة. منذ أربعة عشر قرنا من الزمن، أصبحت بلادنا تشكّل أحد مرتكزات الحضارة الإسلامية العظمى. وكسكان شمال أفريقيا، فإننا نمتلك تراثا عريقا ورثناه من مصادر بعيدة جدا، تعود إلى إبراهيم ويعقوب عليهما السلام. لقد عبر هذا التراث جبل سينا وجبل أشجار الزيتون وجبل عرفة.. عبر هذه الأماكن المقدّسة التي تنبعث منها نفحات الوحي.

---

1. ل. لوبرانس رانغي – L. Leprince-Ringuet – العلم وسعادة الإنسان Sciences et bonheur des hommes – دار النشر «فلاماريون» – باريس 1977.

2. كونراد لورنز – Konrad Lorenz – عالم نمساوي ولد في 1903. حصل على جائزة نوبل في الفيزياء والطب عام 1973.

3. كونراد لورانز – الخطايا الرئيسية الثمانية لحضارتنا – *Les huit péchés capitaux de notre civilisation* – دار النشر «فلاماريون»، باريس 1973.

إذا كان الرصيد العلمي لأوروبا الحديثة كنزا لا يقدّر بثمن وعلينا أن نكسبه مهما كلّفنا ذلك، فإن الرصيد الروحي الذي يأتينا من آسيا أكثر من ذلك بكثير. في آسيا، ظهرت الأديان التوحيدية التي تركت لنا لوحتي الوصايا العشر والإنجيل والقرآن. ومع هذه الكتب السماوية، تلقّت الحضارة الإنسانية أخلاقا وتقاليد إنسانية ذات بعد عالمي. في الحقيقة، لم تتلقّ البشرية منذ ذلك الوقت ما يشبه هذه التعاليم.

إنّ النزاع الدائم بين الأديان الثلاثة لا يقلّل من شأن العامل الاجتماعي والحضاري الذي روّجته عبر الزمان والمكان. لا شكّ أن التوراة قد نازعت الإنجيل والإنجيل نازع بدوره القرآن، أمّا القرآن فلم يتمكّن، رغم تسامحه الكبير وإيمانه برسالتي موسى وعيسى عليهما السلام، أن يوفّق بين الأديان الثلاثة. وكنتيجة لذلك، ظهرت العديد من التناقضات والأحقاد العنيفة.

تغيّر الزمن. وعلينا أن نفكّر اليوم في تحقيق التفاهم والمصالحة بين كلّ المؤمنين دفاعا عن الحريات الروحية وصيانة كرامة الإنسان. لا ينبغي للتضامن الإسلامي - اليهودي - المسيحي أن يبقى حبيس الخرافات. ليس هناك عائق بين الأديان الثلاثة لا يمكن تجاوزه. من خلال التوصّل إلى تفسير أحسن للعقائد الثلاث واحترامها احتراما مطلقا من قبل الجميع، يمكن أن يسود التسامح بين الاختلافات وأن يفتح الطريق أمام تفاهم واسع ووئام حقيقي.

*

في الماضي، لم تكن علاقات اليهودية بالإسلام سيّئة. وقبل المسجد، وبلا حرج، أن يكون بجوار المعبد اليهودي ولم يقع بينهما أي نزاع خطير. جمهور كبير من المفكرين اليهود كتبوا باللغة العربية. والكثير منهم أثروا العلوم ثراء بالعمل في كنف الحرية وفي منأى عن الشريعة الإسلامية. لكن هذا الجوّ تغيّر مع ظهور دولة إسرائيل فوق الأراضي الفلسطينية. أولئك الذين قرّروا إنشاء هذه الدولة فوق الأراضي الفلسطينية أخطأوا ونسوا بأنّ فلسطين كانت مأهولة وكان سكانها يتمتّعون بحقّ غير قابل للتصرّف. هذا الخطأ إنما يرتبط بالتصوّرات الاستعمارية.

أوروبا تشعر بالذنب إزاء مشكلة اليهود وتميل اليوم، تحت تأثير صدمتها من جرّاء الإبادة الجماعية التي ارتكبها ضدهم واحد من ذويها، وبالتحديد منذ هتلر، إلى توجيه التهمة إلى العرب، ولاسيما إلى الفلسطينيين في كفاحهم من أجل البقاء. في الولايات المتحدة، بلغت نزعة أحد أعضاء الكونغرس إلى الطائفية حدّ إهانة العرب بكلّ فظاظة ووصفهم بأنهم من «سلالة منحطة».

حقا!

يبدو أن أوروبا وأمريكا يريدان أن يحوّلا مصادر المسؤوليات. لم تكن العنصرية ومعاداة السامية من اختراع هتلر ولا العرب على الإطلاق. بل هي إرث تركته الأمم الأوروبية «الأكثر تنصيرا».

في كتابه حول العلاقات بين اليهود والمسيحيين، يتتبع «ميشال ريكي Michel Riquet»[1] مسار محنة اليهود الأوائل الطويلة منذ العصور الوسطى حتى أيامنا هذه. إذ كتب يقول:

«إن لم تكن للقدّيس لويس Saint-Louis أيّ أطماع على الإطلاق وهو يطرد اليهود من فرنسا، واليهود دون سواهم، المتهمين بالثراء بفضل الربا، فالأمر يختلف مع حفيده فيليب لو بال أو الوسيم Philippe Le Bel، الذي سوف يطرد، في 1306، كل اليهود من مملكته ويقوم بمصادرة ممتلكاتهم. وبعدما قام «لويس السادس المشاكس – Louis VI Le Hutin – في 1315 باستدعائهم لبعض الوقت، قام شارل السادس بطردهم نهائيا عام 1394. وسبق لملك إنجلترا أن طرد كل اليهود من مملكته شر طرد عام 1290.»

«كانت القدّيسة الإمبراطورية الرومانية الجرمانية أرحم بهم لوقت طويل. لكن الهلع الشديد من جرّاء الموت الأسود الذي اجتاح أوروبا ما بين 1347 – 1350، كان قد أحدث في ألمانيا مجازر عديدة في أوساط اليهود الذين حمّلهم الرأي العام مسؤولية الوباء. في ستراز بورغ، حرق 2000 يهوديا داخل مقبرتهم يوم 14 فبراير 1349. وكانت مدن عديدة، مثل كولمار، وورم، أوبنهايم، فرانكفورت، إيرفرت، كولونيا، وهانوفر مسرحا لمجازر مماثلة».

---

1. ميشال ريكي (1898 – 1993) R.P. Michel Riquet. في 1918، دخل الحياة الكهنوتية اليسوعية وفي 1928 أصبح قسا. كان من أنصار الماسونية وإقامة دولة إسرائيل في فلسطين.

«ومن ثمّ، سوف يدعو بعض أمراء المدن اليهود إلى العودة. ولكن، منذ ذلك الوقت، لم يعد يهود أوروبا في مأمن في أيّ مكان. وبدءا من القرن الرابع عشر، سوف يتم طردهم بشكل دوري من سترازبورغ عام 1388 ومن بالاتينا عام 1394 ومن النمسا عام 1420 ومن أوغسبورغ عام 1439 ومن مرزبرغ عام 1453 ومن بريسلو عام 1454 الخ...

«لقد زادت انتقادات «لوثر» اللاذعة ضد اليهود من حدّة كراهية الجماهير لهم. وبالتحديد، توصّل مؤرخ اليهود في ألمانيا خلال العصور الوسطى إلى هذا الاستنتاج: لم تعد لهم إقامة ثابتة في أكبر جزء من ألمانيا وتمّ الترخيص لهم بالإقامة فيها لبضعة أيام فقط مقابل مكس العبور. إذ لم تكن ظروفهم منذ الحروب الصليبية آمنة إطلاقا من الحروب الصليبية، فقد أصبحوا متشردين يتسوّلون من مدينة إلى أخرى، لا يكاد يستقرّ لهم قرار في أي مكان تقريبا، إلا في نهاية العصور الوسطى»[1].

بطبيعة الحال، كانت الهتلرية في زماننا هي الوارث الأكبر لهذه الكراهية اتجاه اليهود التي انتشرت آثارها على امتداد تاريخ أوروبا.

«دشّنت ليلة «الكريستال الشهيرة والمأساوية – Kristalnacht – من 9 إلى 10 نوفمبر 1938، داخل ألمانيا، ولكن داخل النمسا أيضا، عهد الفظائع والاعتقالات بمحتشدات الموت البطيء والمجازر. في كتابه «صلوات الكراهية – Bréviaire de la haine، أعدّ «ليون بولياكوف»[2] حوصلة لسلسلة الأعمال الإجرامية التي كانت تزداد وحشية ضدّ الشعب اليهودي. وسوف تؤدّي هذه الأعمال الإجرامية إلى الحلّ النهائي الذي كلّف «غورينغ Goering المدعو «هيدريخ Heydrich»، منذ 31 يوليو 1941، بضبطه والذي سوف يتمّ اعتماده نهائيا في ندوة «وانسي – Wannsee» ببرلين، في 20 يناير 1943. وبعد تهجير ما يعادل 537.000 يهودي من ألمانيا وبشتى الوسائل ما بين 1933 و 1941، مكث في الأراضي التي احتلتها جيوش

---

1. ميشال ريكي «مسيحي في مواجهة إسرائيل – Un chrétien face à Israel» – دار النشر «لافون»، باريس 1975.

2. ليون بولياكوف Léon Poliakov – «صلوات الكراهية، الرايخ الثالث – le III^e Reich et les Juifs – Bréviaire de la haine – أي ألمانيا النازية في عهد هتلر (1933-1943) – دار النشر «كالمان ليفي»، باريس 1925.

هتلر في بولونيا وروسيا على الخصوص، ولكن في فرنسا وهولندا والدنمارك أيضا، نحو أحد عشر مليونا. وفي 14 فبراير 1942، كتب «غوبلز Goebbels في مذكراته يقول: أعرب القائد هتلر مرّة أخرى عن قراره للتخلص نهائيا من اليهود عبر أوروبا». وسوف يوضح «إيشمان Eichmann» لـ «ديتر ويسلساني Dieter Wisliceny» بأن الحل النهائي الذي كان يقصده هتلر هو «الإبادة البيولوجية والكلية لليهود في أراضي الشرق»[1].

هل كان بإمكان أوروبا أن تتجنّب موجات الحقد الكاسحة؟ بلا شكّ. منذ أن فرضت المشكلة

اليهودية على ضمير الإنسان ومنذ أن أصبحت أوروبا تتصرّف بكلّ سيادة عبر كل القارات، كان يمكن توطين إسرائيل على أرض «شاغرة». لم يفكر أحد في ذلك. في كندا، في أمريكا الجنوبية، في أفريقيا،في أستراليا. كانت المشكلة الجوهرية المطروحة في هذا

الشأن تتمثّل في إيجاد «وطن» لليهود حتّى يتمّ محو صورة «اليهودي المتشرّد»، الحقير والمضطهد إلى الأبد.

كان هذا الأمر صحيحا، لا سيما أن فلسطين لم تكن دائما لليهود وحدهم. عندما دخلوها عشرة قرون قبل الميلاد، في عهد داود وشاول - طالوت Saul، كان العمالقة (نسبة إلى عمليق أبو العماليق - المصدر/ الطبري) Les Amalécites، كان الفلستينيون Les Philistins والحثيون Les Hittites، الخ... يحتلون البلاد منذ بضعة قرون من قبل. وقام اليهود بإبادتهم أو استعبادهم كما يتصرّفون اليوم مع العرب الفلسطينيين. غالبا ما يعيد التاريخ نفسه.

لكن المسألة لم تعد من هو المحتلّ الأوّل. لم يعد هناك من ينازع اليهود حقهم في امتلاك وطن لهم. فكرة الوطن فرضت نفسها فرضا على أوروبا، ولاسيما منذ الحربين العالميتين الأخيرتين حيث قدّم خلالهما اليهود خدمات جليلة لقضية الحلفاء.

في 1914 - 18، وفي الولايات المتحدة التي كان الحزب الموالي لألمانيا قويا جدا، استطاع اليهود في نهاية الأمر أن يرجّحوا الكفّة لصالح الحلفاء.

---

1. ميشال ريكي - نفس المرجع المشار إليه سابقا

وبفضل موقفهم، دخلت أمريكا الحرب عام ١٩١٧ وتمّ تحقيق النصر وبسبب هذا التدخّل الحاسم، حملت ألمانيا لهم كراهية شديدة.

خلال الحرب العالمية الثانية، لم يقصّر اليهود أيضا في تقديم الدعم إلى نفس الحلفاء، على الصعيد المالي والتقني، كان هذا الدعم قيّما. عندئذ، اتّفقت الولايات المتحدة مع الاتحاد السوفياتي على تقديم فلسطين هبة لهم متناسين الخدمات التي قدمها العرب للحلفاء.

لم يكن هذا القرار عادلا ولا سياسيا، لأن فلسطين هي ملك للفلسطينيين. لا نسدّد ديوننا بأملاك الغير. وبما أن الهتلرية هي التي ضحّت بأكثر من ستة ملايين يهودي، ألم يكن من الإنصاف تحميل ألمانيا بالتحديد، دفع دين هذه الجريمة؟ هتلر ألماني، أوروبي ومسيحي. وعلى أوروبا والمسيحية أن تعوّضا الأضرار التي تعرّض لها اليهود.

أعرف بأنّ العودة إلى الوراء ما هي إلا مجرّد أوهام. إسرائيل دولة قائمة بحدّ ذاتها. لكن الفلسطينيين موجودون أيضا. ويجب أن يكون لهم وجود. الحل المنطقي أن يسيطر اليهود على قوّتهم العسكرية ومخاوفهم وأن يقبلوا بإنشاء دولة فلسطينية. قد يكون التمسّك بحلّ القوّة أكثر من جريمة، بل خطأ فادحا للغاية.

كيف يمكن للشعب اليهودي الذي كان هائما تائها طوال عشرين قرنا من الزمن عبر مختلف أصقاع العالم أن يبقى بلا اكتراث بمعاناة الشعب الفلسطيني الذي طرد من أرضه ووطنه؟

التعايش بين الدولتين ممكن، بل هو الحلّ الأمثل. وعندما تختفي الأغلال والأحقاد، يصبح من الممكن إقامة كنفدرالية بين هاتين الدولتين.

ما هي القيمة الروحية التي يمكن أن ترتبط بالصلوات التي تقام كل يوم في المعابد اليهودية والكنائس والمساجد إن لم تكن هذه الصلوات تنادي إلى الأخوة والعدل؟ وإن لم يكن من واجبها إعادة استحداث ضمير عالمي خال من كل أشكال العنف؟

هكذا كنت أتساءل خلال ربيع ١٩٧٥. وهنا، في نوفمبر ١٩٧٧، سلك قائد دولة إسلامية، الرئيس السادات، بكل عزم طريق السلام. ومما جرى لهذه المبادرة، فسوف يشهد عمله هذا الجدير برجل دولة عظيم على حسن



وإياه وشجاعته وواقعيته. بل يمكن لشعب مصر أن يفتخر برئيس دولته ويعتز به كل الاعتزاز.

أشادت يومية «لوموند/ العالم/ Le Monde» الفرنسية، على غير عادتها، إشادة مثيرة بحيث كتبت تقول:

«من على المنبر العالمي الرائع الذي كانت توفّره له، ما وراء جدران الكنيسيت، عبر الأقمار الصناعية العالمية للاتصالات، وجّه الرئيس السادات لأعدائه خطابا جاءت نبرات الحماس الديني له لتزيد، مع سموّ أفكاره النادرة، من قوّة الحجّة ونبالة الإلهام. وبكل براعة، اعترف بوجود دولة إسرائيل ووافق مسبقا على كل الضمانات التي كان يمكنه أن ينشدها ومسح بنفس واحد في لحظات من الوحي النبوي، أحقاد وضغائن حرب ثلاثين سنة وهو يخاطر بنفسه بما كان يرشّحه، كما كتبت يومية بريطانية بنبرة مازحة، لتلقي رصاصة إرهابي أو للفوز بجائزة نوبل للسلام[1].»

فيما يتعلق بشؤون إسرائيل، هذه هي المرّة الأولى التي أنصف فيها الرأي العام الغربي مسلما.. مصريا بالتحديد.

لنسجّل ذلك. لكن على رجال الدولة في إسرائيل أن يقدّروا شجاعة السادات حقّ قدرها. لو تردّ إسرائيل على مصر بالحيلة والرفض، فإنها سوف ترتكب خطأ فادحا وعليها أن تسلم بلا إكراه نفسي، بأنّ المشكلة المطروحة هي مشكلة شاملة ولا تقتصر على مصر فحسب. إن لم تسترجع سوريا أراضيها وإن لم يعدِ الفلسطينيون إلى أراضيهم ليؤسّسوا دولتهم الخاصة بهم، فلن يتحقّق أيّ حلّ دائم.

حجّة استعمال القوّة ضرب من الوهم. قد يتحوّل مركز القوّة رغم الدعم المنافق والعدواني الذي تقدّمه الولايات المتحدة إلى إسرائيل. فلن تستطيع إسرائيل أن تضمن بقاءها إلا في ظلّ صداقتها مع جيرانها.

الويل لها إن لم تدرك هذا الأمر!

العلاقات بين المسيحية والإسلام عسيرة على الفهم لأنها تعود إلى العصور الوسطى. كان الإسلام، وهو في أوج قوّته وازدهاره، يشكل مصدر

---

1. يومية «لوموند/ العالم/ Le Monde» عدد 22 نوفمبر 1977.

تهديد لأوروبا المسيحية. غربا، باحتلاله لجنوب فرنسا وأسبانيا طوال ثمانية
قرون، وشرقا، باحتلاله لوسط أوروبا. إذ بلغ هذا الاحتلال الأخير، كما
نتذكر، ذروته مع حكم الخليفة سليمان القانوني (1520-1566). ولم يتوقف
زحف الإسلام إلا عند أبواب فيينا.

ثمّ جاء التقهقر الذي شجّعته الصراعات الداخلية التي أضعفت
الإمبراطورية الإسلامية من جهة، والاكتشافان اللذان توصّلت إليهما أوروبا
وما كان لهما من آثار شتّى، من جهة أخرى: اكتشاف الطباعة (غوتنبورغ عام
1440) واكتشاف أمريكا (كريستوف كولمب عام 1492).

انطلاقا من هذين الاكتشافين، ودّعت أوروبا العصور الوسطى
لتستيقظ على العصور الحديثة. بذلك، كانت أوروبا تسعى إلى نفي الإسلام
ومطاردته حتى حدوده الخاصة. وباستثناء الحروب الصليبية الدينية، كانت
الحروب التي توالت على الأراضي الإسلامية عبارة عن بعثات تجارية أو
غزوات استعمارية.

طوال خمسة قرون كاملة، من تركمنستان إلى المحيط الأطلسي، مرورا
بالهند وأندونيسيا وأفريقيا السوداء، كان العالم الإسلامي تحت الحصار.
وبعدما وقع في قبضة الأوروبيين، كافح يائسا كي يتخلّص من الاستعباد
التام والاستغلال الأعمى.

لقد شاهد الإسلام، وهو يخوض كفاحا بلا هوادة، منابع اكتشافاته
العلمية وهي في طريقها إلى الزوال. فتقوقع على نفسه حتى يقاوم المخاطر
الخارجية بشكل أفضل، ومن ثمّ حكم على نفسه بالجمود والانحطاط.

منذئذ، أصبح لقمة سائغة أمام كلّ الأطماع بحيث تحوّل ما كان في
البداية بالنسبة إلى أوروبا النصرانية حروبا دفاعية إلى حملات لغزو أراضي
غنية بالمواد الأوّلية. وتكالبت أوروبا على الشعوب الإسلامية لإخضاعها
والسيطرة عليها واستغلالها لوحدها دون أي شريك.

لقد أتت أوروبا النصرانية التي تحوّلت إلى أوروبا الصناعية على كل
شيء. أنظروا ما كان الكاتب «سيدني لو Sidney Law» يفكر فيه وهو يقول
عام 1912:

«طوال هذه السنوات الأخيرة كان سلوك بعض القوى النصرانية يشبه جداً، وبشكل غريب، سلوك عصابة قطاع الطرق وهي تنقضّ على فلاحين عزّل وتعاملهم بكل احتقار وازدراء بعيداً عن واجب احترام حقوق الأمم الأخرى. وهي في الواقع تفعل ذلك لتؤكّد حقّ القوي على الضعيف وعجز كل الاعتبارات الأخلاقية أمام القوة العسكرية.»

كان علينا أن ننتظر بداية القرن العشرين لكي نشاهد أولى ردّات فعل الخلاص، وبالتحديد مع انتصار تركيا على اليونان عام 1922. ولأوّل مرّة، يحقق هذا البلد نصراً عسكرياً على بلد أوروبي بلا أيّ غموض.

يمكننا المخاطرة لاكتشاف بعض نقاط التقارب: مصطفى كمال[1] هو إلى حدّ ما شارل مارتل Charles Martel[2] الإسلام. انتصار ساكاريا هو ارتداد لبواتييه. هنا فوق هضبة الأناضول أوقف الزحف الأوروبي في الأراضي الإسلامية خلال معركة امتزج فيها الحماس الديني بحبّ أرض الوطن.

نصر «ساقاريا» – نهر سانغاريوس في اليونان قرب أنقرة – هو الذي وضع حدّاً لنزعة الحروب الصليبية وسلسلة الاستسلامات. بعد انتصاره، لام بعض المسلمين الجنرال المظفّر على تضحيته بمؤسسة الخلافة الإسلامية. فهل يستحقّ هذا اللوم؟ وقتذاك، كانت الحكمة تقتضي التضحية بما لم يعد من الممكن الدفاع عنه لإنقاذ ما هو أهمّ.

«... هو الذي بقر بنفسه الإمبراطورية العثمانية، وانتزع، وهو يغرز يده في أحشائها، الشعب التركي الفتي الذي لم يكن يهمّه إلا البقاء وهو مخضب بالدماء ولا يزال على قيد الحياة»[3].

لا يزال إذن مصطفى كمال أحد أعظم القادة في تاريخ العالم الإسلامي. وسوف يفوز بالغفران لمحاولة إدخال العلمانية إلى بلد مسلم. التحق بصلاح

---

1. مصطفى كمال أتاترك (1881–1939)، انتخب أول رئيس لتركيا في 29 أكتوبر 1923.

2. شارل مارتل Charles Martel ، هو قائد الإفرنج الذي أوقف زحف المسلمين بقيادة السلطان عبد الرحمن في 25 أكتوبر 732 بمدينة بواتييه Poitiers الفرنسية.

3. J. Benoist-Méchin «مصطفى كمال أو وفاة إمبراطورية – Mustapha Kemal ou la mort d'un Empire» – نادي الناشرين – باريس 1959.

الدين وطارق بن زياد وعقبة بن نافع وخالد بن الوليد الذين حقّقوا في فترات تاريخية مختلفة مآثر عسكرية بطولية. أمّا إضفاء الطابع الأوروبي على تركيا وعلمانيتها، فهذا لا يشكّل في واقع الأمر إلا واجهة، فما زالت تركيا تحتفظ من وراثها بإيمان الإسلام وفضائل العرق التركماني.

لقد سمحت الحرب العالمية الثانية للبلدان الإسلامية، بفضل زعزعة أركان الإمبراطوريات الاستعمارية، بخوض كفاحها في سبيل الانعتاق من الهيمنة الاستعمارية. منذئذ، استقرّ الإسلام على حدوده الطبيعية إلا فيما يخصّ فلسطين وألبانيا وما يعادل ثلاثين مليون من مسلمي آسيا الوسطى الذين أرغمهم الاتحاد السوفياتي على هجرة الإسلام. ومن ثمّ أصبح هذا الإسلام مرّة أخرى سيّد مصيره بفضل تماسك الشعوب التي سبق لي أن تحدّثت عنها.





المصالحة بين الإسلام والمسيحية هي أنبل مهمّة يمكن لجيلنا أن يؤدّيها. ولا بدّ أن تحلّ علاقات سلمية وإنسانية محلّ الصراعات والحروب والأحقاد التي قسّمت هاتين الديانتين السماويتين.

ليس هناك تباعد كبير بين الديّانتين. عندما لجأ المسلمون، في بدايات الإسلام، بسبب اضطهادهم من قبل غلاة الوثنية، إلى الحبشة، طلب مسيحيوها منهم شرح عقيدتهم الجديدة لهم، فردّ عليهم النجاشي قائلا: «إن هذا الذي جاء به نبيّكم والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة ... والله ما خرج عيسى بن مريم عمّا جاء به نبيّكم مقدار شعرة..» هيهات! منذئذ، أصبحت الشعرة محيطا من الدموع والدماء.

نحن سكان شمال أفريقيا أو غرب الإسلام من رضعنا حليب عقلانية أوروبا وحضارتها بحكم جوارنا لها، يحقّ لنا أن نتساءل ما إذا لم يحن الوقت لإعادة التفكير في المشكلات وفي العمل على تحقيق المصالحة بين تصوّرين دينيين قدرهما التعايش السلمي وليس المواجهة؟ في البداية، يجب أن نقول لأوروبا بأنها لم تكن عادلة مع الإسلام وهي تخفي بكلّ دقّة، طوال قرون من الزمن ما حقّقه الإسلام وما تدينه له.

تكاد الكتب المدرسية تلتزم الصمت التامّ إزاء الدور الذي لعبه العالم الإسلامي خلال العصور الوسطى. صحيح، هناك تفسير لذلك. الدكتور غوستاف لوبون[1] يعرض هذا الأمر بكثير من الوضوح:

«كان أتباع محمد (ﷺ) طوال قرون من أشرس الخصوم الذين عرفتهم أوروبا. عندما لا يقرعوننا بأسلحتهم، كما في عهد شارل مارتل أو في عهد الحروب الصليبية أو عندما هددوا أوروبا بعد الاستيلاء على القسطنطينية، فهؤلاء المسلمون قد أهانونا بتفوّق حضارتهم الساحق وأننا لم نتحرر من تفوقهم إلا البارحة فقط.»

«لقد تراكمت الأفكار المسبقة الموروثة التي نجاهر بها ضدّ الحركة الإسلامية وأتباعها لمدّة قرون طويلة للغاية بما لا يسمح لهم بالانتماء إلى ... تعتبر هذه الأفكار المسبقة طبيعية ومتأصّلة - المتخفية أحيانا والدفينة دائما - بقدر تأصّل كراهية اليهود الطبيعية إزاء المسيحيين.»[2]

ربما كان هذا التأويل صحيحا. لكنّه اليوم لم يعد كذلك بعدما هيمنت أوروبا بدورها على كل العالم الإسلامي لقرون عديدة. لا ينكر المسلمون على الأوروبيين تفوقهم العلمي ولا ما يدينه العالم للحضارة الحديثة.

هذا مبرر إضافي لعدم إخفاء ما يدينه هؤلاء الأوروبيون للإسلام. خلال العصور الوسطى، كانت الأدوار معكوسة، العرب هم من ساهموا بشكل كبير في نهضة أوروبا. والآن يلقّن الشباب الأوروبي مدى تأثير الحضارة اليونانية والرومانية في ثقافتهم ويغفل تأثير الحضارة الإسلامية على حضارتهم.

أسماء مثل أسماء ابن رشد والغزالي والهمداني والطبري وابن خلدون والخوري وابن بطوطة والمعري وأبو داسيس والقزويني وابن جبير، الخ...

---

1. الدكتور غوستاف لوبون 1931 - 1841 (Dr Gustave Le Bon) هو دكتور في الطب وعالم اجتماع فرنسي. ألّف عدة مؤلفات حول اختلال السلوك وعلم النفس عند الجماهير الشعبية، وهو من أنصار فكرة هرمية المجتمعات البشرية وتفوّق الحضارة الغربية.

2. الدكتور غوستاف لوبون - «حضارة العرب La civilisation des Arabes - دار النشر -SFIED- - باريس 1984 -.

يجب التعريف بهذه الأسماء كالتعريف بأسماء «سيناك Sénèque وفرجيل Virgile وأفلاطون وهومير Homère... كان هؤلاء من الروّاد بالنسبة لأوروبا وأعمالهم المترجمة إلى اللغة اللاتينية هي التي مهّدت الطريق أمام الأوروبيين إلى الفيزياء والكيمياء والرياضيات والميكانيكا وعلم الفلك والجغرافيا والتاريخ. كثيرا ما يعتزّ الأوروبيون بانتماء ثقافتهم إلى الحضارة «اليونانية- اللاتينية».

لكنها في الحقيقة، قد كانت أيضا «عربية - أوروبية» لأكثر من ستة قرون. وحتى على المستوى اللغوي، تدين كل من فرنسا وأسبانيا وإيطاليا بعدد كبير من مصطلحاتها وكلماتها المستعارة للغة العرب العلمية والتقنية. أمّا الأعداد فهي أعداد عربية. لكن للأسف لم تتعمّم إسهامات العرب بل بقيت حكرا على بعض المستشرقين. ليس أكثر.

بهذا الصدد، كتب الدكتور غوستاف يقول: «لم يقتصر دور العرب على تطوير العلوم بفضل اكتشافاتهم، وإنما امتدّ إلى نشر هذه العلوم أيضا عبر جامعاتهم وكتبهم. وقد كان حقا التأثير الذي مارسوه في هذا المجال عبر أوروبا تأثيرا هائلا.»[1]

هناك توافق بن شهادات «رينان» Renan و «سيديليو» Sedillot و«بارتيليمي Barthélémy وسانت هيلار Saint-Hilaire و «درمانغهام» Dermenghem و «ليون غوتيي» Léon Gautier وغيرهم... العرب هم الذين غيّروا عادات أوروبا وأدخلوا إليها المنهج التجريبي وغيره من المعارف العلمية الأخرى. كما مهّدوا الطريق أمام العصور الحديثة.

«في تجارتهم مع العرب وتقليدهم لهم، هذّب سادة عصورنا الوسطى الغلاظ عاداتهم الفظة واكتشف الفرسان، دون التفريط في شجاعتهم، مشاعر أكثر رقة، نبلا وإنسانية. هناك شكوك في أن تكون المسيحية، رغم برّها وإحسانها، هي التي كانت وحدها مصدر إلهام لهم.» - (بارتيليمي سانت هيلار).

---

1. الدكتور غوستاف لوبون، نفس المرجع المشار إليه آنفا.

أما «سيديليو» الذي يتفق مع رأي «هينبولدت Hinboldt» على الخصوص، فإنه قد حلل التطورات التي حققها العرب وبقيت مجهولة لدى الأوربيين، على النحو الآتي:

«ما يميز مدرسة بغداد، ولاسيما في بداياتها، روحها العلمية الحقيقية التي كانت تنظم الأعمال والانتقال من المعلوم إلى المجهول وتقرير الظواهر بدقة لتتبع بعد ذلك الآثار إلى العلل وعدم التسليم بما لا تؤيده التجربة. تلك هي المبادئ التي قام كبار الأساتذة بتعليمها. لقد كان عرب القرن التاسع يمتلكون هذه المنهجية الخصبة التي كان يجب أن تنتقل، بعد زمن طويل للغاية، بين يدي الحداثيين كأداة لأجل اكتشافاتهم.

«لقد عاشت أسبانيا ومعها جنوب فرنسا، لمدة طويلة حسب التوقيت العربي. علينا أن نعز و أسباب تطوّر فرنسا إلى مكوث العرب في هذه الأصقاع، وما جلبوه معهم إلى جنوبها من مختلف الصناعات وبعض المناهج الزراعية وبعض الآلات ذا الإستعمال العالمي، مثل آلة استخراج الماء لسقي البساتين والحدائق التي تعدّ كلها اكتشافات عربية»[1].

أختتم حديثي بشهادات الأوروبيين أنفسهم، كاستنتاج الدكتور «غوستاف لو بون» الذي نستعرضه فيما يلي:

«نختتم هذا الفصل بالقول إنّ الحضارة الإسلامية قد كان لها تأثير كبير في العالم وإن فضل هذا التأثير لا يعود إلا للعرب وليس إلى مختلف الأجناس التي تبنّت هذه الثقافة.

«بفضل تأثيرهم الأخلاقي، مدّنوا الشعوب البربرية التي دمّرت الإمبراطورية الرومانية، وبفضل تأثيرهم الفكري، فتحوا أمام أوروبا عالم المعارف العلمية والأدبية والفلسفية التي كانت تجهلها، بل كانوا صنّاع حضارتنا و أساتذتنا طوال ستمائة سنة.[2]»إن أمعنت في سرد سلسلة من الإستشهادات – وأنا أستسمح القارئ على ذلك – فلأن الأوروبيين الذين وجدوا داخل مستعمراتهم عالما عربيا جاهلا وإسلاما في حالة انحطاط، قد

1. بول فوريال، تاريخ الشعر البلدي، ب. دوبرا، باريس 1846، Paul Fauriel. *Histoire de la poésie provençale*.

2. الدكتور غوستاف لو بون – نفس المرجع المذكور آنفا

كانوا يتخيّلون بأن الأمر كان دائما على هذه الحال. لقد ظلّوا حبيسي أفكارهم المسبقة وغالبا ما كانوا يزرعون بذور كراهيتهم في هذا العالم. وبكل عناد، ما زالوا يتجاهلون بأن العرب الذين استطاعوا «تدجينهم» قد كانوا الوقت ليس ببعيد أسيادا لهم وصنّاع حضارتهم.

لا يشكّل انحطاط العالم الإسلامي إطلاقا عيبا في عبقرية العرب ولا حتّى زوال اليونان القديمة أو انحطاط روما اللذين لم يمحوا صوّر عظمة هاتين الحضارتين العريقتين ومعالم شموخهما.

كان العرب عظماء وتعدّ الفتوحات الإسلامية ونشر اللغة العربية عبر مختلف القارات شهادة ساطعة على هذه العظمة.

فمن أين جاء إذن تمجيد ماضي الإغريق والرومان وتجاهل ماضي العرب، بل وتسفيهه؟ من المؤكد تماما أن الحضارات تزول والحضارة الحديثة، مصدر قوّة القوى الصناعية، سوف تزول بدورها،كما زالت الحضارات التي سبقتها.

فكيف؟ ومن يستطيع التنبّؤ بذلك؟ من المؤكّد أن الحضارات هي أيضا، تماما مثل جسم الإنسان، تفرز «السموم» و «الأمراض» التي تؤدّي على المدى البعيد إلى الموت والزوال. وكما كتب «بول فاليري» عقب الحرب العالمية الأولى يقول: «نحن الحضارات ندرك الآن بأننا نموت مثلنا مثل البشر».

ليس في نيتي أن أقوم مع ذلك بأداء دور الدجّال. الحاضر هو الذي يستوقفنا ويلحّ علينا. لهذا السبب، تبدو المصالحة بين الحضارات المتصارعة هي أنجع وسيلة لضمان ديمومتها. لقد تزامنت نهاية القرن العشرين مع يقظة آسيا وأفريقيا. وبهذا، دخلنا حلقة جديدة، ويكمن حظنا الوحيد من أجل البقاء في الحوار والتعاون على مستوى سائر قارّات العالم.

بالنسبة إلينا، نحن سكان شمال أفريقيا، من المستحسن، بل من الضروري أن تقوم شعوب أوروبا اليهودية - المسيحية والإسلامية بمحاسبة نفسها على نطاق واسع ومراجعة أحكامها.

لاشكّ بأنّ حوض البحر المتوسّط قد كان مسرحا لصراعات محتدمة. فتصارعت الحضارتان، الحضارة المسيحية والحضارة الإسلامية، دون أن تتمكن إحداهما اجتثاث الأخرى اجتثاثا كليا ونهائيا.



تعود آخر محاولة امبريالية إلى عام 1956. وكانت موجّهة ضدّ مصر بشكل خاص، وضدّ الإسلام والعالم العربي بشكل عام. قامت كل من إنجلترا وفرنسا، بتواطؤ إسرائيل، بتنفيذها. غير أنها توّجت بالفشل.

الظروف الدولية تغيّرت. وسوف تتطوّر باستمرار لصالح الشعوب الصغيرة وعلى حساب هيمنة الكبار، لاسيما ضدّ كلّ تفوّق عسكري.

تقتضي الواقعية السياسية من الأمم المتوسّطية أن تتشاور فيما بينها بشكل دائم وأن تتوحّد حتى يصبح البحر المتوسّط «بحيرة للسلام». السلام ممكن، لكن يبقى على أوروبا أن تراجع نظرتها للحياة وأن تضع حدّا لأنانيتها. كل سنة ترمي أوروبا، مع الفضلات، ما يغذّي قارّة بأسرها من الجوع. ألا يعدّ هذا شتما لأولئك الجيّاع لاستمرار هذا التبذير، بينما تساوم أوروبا شعوب مستعمراتها السابقة أسعار موادّها الأوّلية؟

لا بدّ من العمل على تحقيق التوازن الاقتصادي العالمي.

*

تزعزعت أركان أوروبا وتشرذمت بسبب الحربين الكبريين اللتي تتحمّل فيهما المسؤولية لوحدها. لهذا السبب، فقدت المكانة الأولى التي كانت تحتلّها في العالم. ولأنّ الحروب مكلفة، فإنها لم تستطع أن تسترجع قدراتها الاقتصادية والبشرية التي كانت تتوفّر لديها قبل الحرب.

لو تتمكّن أوروبا الأممية أن تضع حدّا لصراعاتها الداخلية ولو تتمكّن أن تتطوّر في مرحلة أولى نحو اتحاد أوروبي، فإنها قد تصبح، بلا منازع، حليفا مفضّلا للشعوب الآسيوية والأفريقية معا.

استقلال هذه الشعوب أزال لديها عقدة النقص و غسلها من أدران الاحتقار ولم يبق فيها إلاّ الآثار الإيجابية لمرور القوى الاستعمارية القديمة بها والبنى الأساسية الحديثة التي خلفتها هذه القوى واستعمال لغاتها ومعرفة عادات وأنماط تفكير بعضها البعض وهذا أمر لا يستهان به.

رغم مواطن ضعفها، وربّما بسبب هذا الضعف، أصبحت أوروبا شريكا ممتازا. بل يمكنها أن تطمح إلى تبوأ مكانة قبل الولايات المتحدة

والاتحاد السوفياتي. هاتان الدولتان من أكثر المستفيدين من الحرب العالمية الثانية. إذ أصبحت الولايات المتحدة قوّة عالمية. واتخذت صناعتها وتقنيتها من جرّاء الحرب أبعادا عالمية. وفي الوقت الحاضر، ليس هناك أيّ دولة أخرى تضاهيها في أيّ مجال من المجالات.

ما فتئت الولايات المتحدة تتطوّر أكثر فأكثر في كلّ الميادين، في صناعة المعدّات الصناعية والعتاد الزراعي وأجهزة المخابر والمستشفيات ومعدّات الفضاء وغيرها...

من المؤسف أن هذه القوّة غالبا ما أفقدتها روح الإنصاف والعدل. ولو بقيت وفية لرسائل الحرية والإنسانية لواشنطن ولينكولن لاستتبّ الأمن العالمي استتبابا نهائيا. لكن القوة لا تؤدّي إلاّ إلى الهيمنة والتعسّف.

وجود الاتحاد السوفياتي هو إذن طريق الخلاص لكبح التجاوزات الأمريكية. يمكن للاتحاد السوفياتي أن يعوّض بشكل كبير عجزه في مجال التقنية والثروة بشساعة أراضيه وحجم موارده البشرية.

هكذا يمكن للاتحاد السوفياتي أن يقوم بدور الوسيط. ويمكنه أن يصبح، وهو يواصل تنفيذ إستراتيجيته، أكبر منافس للقوّة الأمريكية. برزت الصين الجديدة كشريك آخر. ولأنها تعرّضت هي الأخرى للإهانة من قبل أوروبا، فإنها تبدو كشريك طبيعي للأفارقة والآسيويين. إنها أكبر أمل لعالم يستيقظ.

خلال حرب الجزائر، ما فتئت الصين تقدّم نصائح صائبة ومجدية وإعانات مادية كبيرة. يجب أن نقول هذا حتى يطلع عليه كل الجزائريين ويتذكّرونه. منذ استقلالنا،كانت مساعدتها التقنية نموذجا لا نظير له. الصينيون، رغم ماركسيتهم، يحترمون إيديولوجيتنا وعقيدتنا وعاداتنا وتقاليدنا.

لهذا السبب، تعدّ الصين حليفا ممتازا للشعوب التي تعرّضت مثلها للهيمنة الأوروبية.

*

لقد ابتعدت قليلا عن صلب الموضوع، وبالأحرى عن موضوع الجزائر الذي يرتبط ارتباطا وثيقا بمستقبل الإسلام. سبق لي أن قلت أننا لا نستطيع أن نتخلص من تأثير الحضارة الأوروبية فحسب، وإنما واجبنا يملي علينا أيضا أن نلتحق بمدرستها العلمية.

كما أنني لا أجهل شيئا عن الأوهام التي ترتبط بالماضي ولا عن الاستياء من جزاء استباحة الإيمان. لكن التطوّر العلمي سلس سلاسة الهواء الذي نستنشقه. يمكنه أن ينفذ إلى كل مكان وأن يفرض نفسه على سائر الشرائح الاجتماعية.

قد يكون التهرّب منه بلا جدوى ولا فائدة.

مأساة سلطان عمان تستحقّ منّا كلّ الاهتمام. فهي تقدّم لنا مثالا لهذا الموقف العبثي السلبي. بعد موافقته على وصاية إنجلترا على بلاده حتى يضع حدّا لخصوماته مع جيرانه، أدرك بأنه كان قد أبرم صفقة المغبون المغفّل. عندئذ، تحصّن بكراهية كلّ ما كان يمكن أن يأتيه من الغرب.

منذئذ، قرّر سعيد بن تيمور أن يدخل في حرب ليس ضد الإنجليز – لأنه كان يدرك بأنه لم يكن يملك الوسيلة لذلك – وإنما ضدّ كلّ أشكال الحياة التي كانوا يريدون فرضها عليه.

وبعبارة أخرى، ضدّ كلّ مظاهر الحضارة الغربية. ولم يكن يسمح لهذه الآفة أن تعبر أبواب مملكته وأن تفسد سليقة شعبه. كان لسان حاله يقول: «لن أسمح أن تلوّث أفكار القرن العشرين فكر القرن الرابع عشر. وهكذا، قام بوضع التقويم الإسلامي في مواجهة التقويم الغريغوري (القرن السادس للميلاد).

«لا نحقّق سعادة الناس بدفعهم إلى إشباع شهواتهم وإثارة حاجات جديدة في نفوسهم كلّ يوم. وإنما بتدريبهم على لجم حاجاتهم وعدم الركض وراء مكاسب مادية غير نافعة. إن حدّدت التعليم، هل تعتقدون بأنني فعلت ذلك حبّا في الجهل؟لكي لا نجعل من أبناء بلدي كائنات بلا قدرة على التكيّف وطبقة عاملة ضعيفة سوف يأتي المستغلّون الأجانب ليستخرجوا منها عمالتهم بكلّ ما يترتّب على ذلك من جحافل لا حصر لها من الساخطين والبطالين لأنّ احتياطاتنا النفطية ليست من الموارد التي لا تنضب.

«أفضل أن يبقوا فلاحين سعداء في أعالي وهاد جبل الحجار الذي تنمو فوق منحدراته أحسن كروم العالم.. كروم «مسقط» التي صنعتم منها «العنب المسكي» ألا يكونوا أحسن حالا هنا بدلا من تخبّطهم في أوحال المازوت وشحوم الآلات و الهواء النتن لمستودعات ومصافي النفط؟ أنسيتم بأنّ كل مدن بلدان الخليج قد كانت قديما مثل «حدائق بابل» بأبراجها المخرّمة لاستقطاب الرياح السماوية من كلّ الاتجاهات الأربعة وبأنّ بواديها كانت مشهورة عبر كل بلاد الشرق لجودة فاكهتها وخضرها وأزهارها الناضرة؟

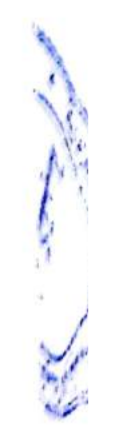
«كلاّ! لن أضحّي بهذه الكنوز مقابل وحشية تكنولوجيا القرن العشرين وخرابها. التطوّر آفة من الممكن كبحها...[1]»

لقد وجد سعيد بن تيمور نفسه، وهو يحاول إيقاف التطوّر، في المنفى بلندن التي توفي فيها في 20 أكتوبر 1972. ولم يستسلم حتى آخر رمق في حياته:

لم يعد أحد يحترم أي شيء.. لم يعد هناك شرف.. لا شيء إلا المصلحة.. المال.. العالم في طريقه إلى الضياع.. ما تنبأت به وقع.. انحطت الأبدان ونجست الأرواح[2].»

قد يخال لنا سماع صوت لرسول اللاعنف. كان «مهاتما غاندي[3] أيضا من أعداء التصنيع والتطوّر. لم يكن يؤمن إلا بحياة الرعي والمغزل».

كان غاندي يعارض بشدّة كلّ أولئك الذين كانوا يزعمون بأن مستقبل الهند كان يتوقّف على قدرته على محاكاة المجتمع الصناعي والتكنوقراطي للغرب الذي احتلّ بلاده. وكان يناهض تقريبا كلّ النظم المتجذرة. وكان



1. ج. بونوا ميشان «مقاصد محبطة» دار النشر «آلبين ميشال»، باريس 1974. A destins rompus. Benoist-Méchin.

2. بونوا ميشان – نفس المرجع المشار إليه سابقا.

3. محنداس كرام شاند غاندي، المدعو مهاتما غاندي (1869-1948). محامي من أنصار اللاعنف كزعيم روحي للهند والحركة من أجل استقلال بلاده. في رحلة إلى جنوب أفريقيا، وهو يكتشف الميز العنصري، تقرّر مصيره لمكافحة الظلم.

يلح على أن خلاص الهند وقوّته يكمنان في محو ما تعلّمه وما اكتشفه خلال السنوات الأخيرة.

«لا ينبغي للعلم أن يقمع القيم الإنسانية ولا للتقنية أن تتسلّط على المجتمع وتستبد به.

«لم يجد غاندي أيّ توافق مع الماركسيين. وكانت الأغلبية منهم ترى بأن نظرياته خالية من كلّ القيم العلمية. وكان هو الآخر يكره الشيوعية الملحدة المولدة للعنف. وفي رأيه، كان أغلب الاشتراكيين عبارة عن «اشتراكيي الصالونات» ليس لهم الجرأة على تغيير نمط حياتهم والتضحية بأبسط مظاهر الرفاهية ورغد العيش.[1]»

عندما أقول أيضا علينا أن نعكف على مدرسة أوروبا، لا تخطر ببالي فكرة إنكار الماضي ورمي كلّ شيء من على متن السفينة، على حدّ تعبير العالم «كونراد لورانز».

عندما زاولت أوروبا، خلال العصور الوسطى، مدرسة الحضارة الإسلامية، لم تعتنق مع ذلك الإسلام ولم تتبنّ لا آدابنا ولا تقاليدنا ولا عاداتنا. واستثرت من معارفنا ولم تتخل عن نمط معيشتها وشخصيتها. بينما كنّا نحن نشيّد مساجدنا المدهشة، كانت هي الأخرى تشيّد كنائسها الرائعة. وهكذا تطوّرت مسيحية العصور الوسطى دون أن تتخلى عن ذاتها.

وفي فترة ليست ببعيدة عنّا، لم يدر اليابان ظهره لتقاليده عندما استوعب خلال القرن العشرين العلوم الأوروبية. وما زالت حتى اليوم قوانين أسلافه تقود أسباب قوّته وعظمته.

لاسترجاع حيوية الماضي، يتعيّن على الإسلام أن يتعلّم، بدون تواضع مزيّف، من جديد ما قام بتعليمه وهو في أوج مجده وازدهاره وعليه أن يستوعب المعارف العلمية والخبرات التقنية مع الاحتفاظ بقيمه الأخلاقية.

---

1. دومنيك لابيار ولاريك ولينز «هذه الليلة .. الحرية»، دار النشر «لافون»، باريس، 1975 Dominique Lapierre & Larry Collins « *Cette nuit la liberté* .

من خلال الاعتراف من مصادر القوّة واستحداث فكر جديد

يعدّ تجديد المعارف من الشروط الأساسية لكسر جدار التخلف ومواكبة العصر. العلم والتقنية وسيلة وليسا غاية. وباستعمالها ينبغي للإسلام أن يبقى وفيا لمبادئه وإلا فقد بعض قيَمه الروحية والأخلاقية السامية وغاياته النبيلة.

إذا كان شبابنا المسلم - بنون وبنات - يعتقد بأن التقدم يتمثل في تقليد الأوروبيين ومحاكاتهم، فإنه قد ضلّ السبيل. المهمّة الملقاة على عاتقه هي مهمّة من طبيعة أخرى.

المجتمعات البشرية هي كائنات حيّة مثل الأشجار العملاقة المتفرّعة إلى آلاف الأغصان. ولا بدّ أن يهدف استيعاب العلوم ومواكبة التقنّيات الحديثة إلى تزويد هذه الشجرة بغذاء أفضل حتى تثمر ثمارا ألذّ. كما ينبغي للتطوّر أن يهدف إلى تخليصها من الأغصان الميتة حتى يمنح البراعم الجديدة حيوية الشباب وشدّته.

لا ينبغي لنا أن نبحث عن حياة أفضل من خلال التخلّي عن أصولنا والمغامرات غير المحسوبة.

«ينبغي لكلّ حركة كبيرة أن تستمدّ جذورها من أعماق الشعب باعتبارها المصدر الأصلي لكلّ قوّة وعظمة. ودون ذلك، خراب وهباء منثور.[1]»

في شبابي، كنت معجبا بمصطفى كمال إلى درجة الولع. كان همّي الوحيد، وأنا أقتبس أقواله، هو التأكيد على إيماني بالقوّة الخلاّقة للقوانين التقليدية الخاصة بكلّ شعب. العلم، لو اقتلع الإنسان من جذوره، لجعله أكثر عرضة لكلّ أشكال الخطر. الإنسان هو من يصنع المجتمع. ولو قضينا على معتقداته وتقاليده، لما وجدنا أيّ إطار اجتماعي مقبول.

كان عمر بن الخطّاب، قائد الأمّة الإسلامية الرشيد، وهو يخاطب الناس بشأن أعداء الإسلام، [في ردّه على سعد بن أبي وقّاس] يقول: «يا سعد، منذ متى ونحن ننتصر على أعدائنا بالعدد والعتاد، إنّما ننتصر عليهم بطاعتنا لله

---

1. مصطفى كمال، خطاب أمام المجلس الوطني.

ومعصيتهم له. فإذا تساوينا في المعصية، غلبونا بالعدد والعدّة والعتاد. فانظر ما وقع في جيشك من الوهن، الضّعف وحبّ الدنيا».

إذا تخلّى أيّ شعب عن أخلاقه وقيمه التقليدية وإيمانه أملا في حياة وكسب أفضل، فإنه سيخسر روحه كلّها.

الويل للشعوب التي تخسر ضميرها !

خامسا

الإيمان بالماضي والأمل في المستقبل

«مات ستالين. ونسي الشامان للأسف، وهم يصفونه بصفات الألوهية، أن يعتبروه خالدا لا يموت. وقد كان هذا النسيان وراء العملية التي سوف تحوّل، بعد سنوات ثلاث، وفاته الجسدية إلى وفاته الروحية».

ميشال غاردر – *المدفع الصغير*
(Michel Garder – *Le Crapouillot*

لـك جـدّي أغنّي، لـك أغنّي، أغـنّي
الجميع يستمع لي وأنت تدرك همّي
أنا وأنت من طينة واحدة ودمك دمي
أنـا أحمـل اسمـك وأنت بعض منّي

جورج موستاكي (أغنية)
Georges Moustaki

ما أروع زماننا مثل زماننا ! لكن علينا أن نتجنّب القطيعة معه وألاّ نغذّي التشاؤم. لنثق في عصرنا وفي العلم الذي بلغ درجة من التطوّر بما يستطيع، في مستقبل قريب، أن يملي على البشر سلوكهم. لا تزال الإنسانية، إلى حدّ ما،في مرحلة الطفولة. وعلاقات الشعوب بعضها ببعض لا تزال هي الأخرى تخضع لإرث العصور الوسطى ولا يزال السلم يهاهل، تحت رحمة مصالح القوى العظمى التي غالبا ما يساء فهمها.

العلم وحده يستطيع، بفضل أبحاثه واكتشافاته، أن يسدّ الباب أمام العنف. وفي غياب حكمة الإنسان، الخوف من الحرب سوف يقضي على الحرب.

في الإسلام، كان يمكن أن يشكّل تعاطي هذا العلم الفرض السادس. إذ جعلت وصايا الرسول (ﷺ) الكثيرة من طلب العلم أحد الفروض الواجبة. ولو أدرنا ظهورنا للعلم، فسوف نحكم على أنفسنا بالجمود والتخلف.

لا يمكن لنا إذن أن نتصوّر أي تناقض بين العلم والدين. وخلافا لتأكيدات الماركسيين، الدين هو إسقاط للضمير الإنساني في المجال الذي لم يستطع العلم أن يكتشفه: إنه نور يتجاوز حدود المعرفة. وإذا كان الدين لا يتنافى مع العلم، فالعلم لا ينفي الدين.

هذا يجرّني إلى القول إنّ التغيير الذي ننشده هو التغيير الذي يمرّ قبل كلّ شيء عبر تعليم العلوم التي سوف نلقّنها للنشء. فبقدر ما تركّز الأجيال الصاعدة على دراسة العلوم، تتجدّد بلادنا ويتغيّر وجهها.

غير أنه يجب إنجاز هذه الدراسات ضمن إطار التفكير الشخصي وروح النقد وحرية التعبير. الإيمان بالله والعلم والحرية ثلاثة أشياء يرتكز عليها التغيير والتقدّم.

منذ استقلال الجزائر، ما برح رجال السلطة يحاولون إقناعنا سدى بما هو عكس ذلك وتلقيننا ثقافة منسوخة من ثقافة الديمقراطيات الشعبية.

ظلّت أغلبية شعبنا الساحقة تنبذ النظام. فعمّت حالة الاستياء. باستثناء أولئك الذين يجنون بعض الفوائد المباشرة من الحكم الفردي وعبادة الشخصية، هذا النظام محكوم عليه وسوف يسقط يوما ما.

منذ وقت قصير، بلغتني نشريتان سرّيتان كلاهما يدينان الفشل السياسي والاقتصادي للنظام الستاليني. وقد صدرت إحداهما من «حزب الثورة الاشتراكية» الذي ينشّطه وزير الدولة السابق للحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية محمّد بوضياف. كتبت الثانية تحت عنوان «الحرية والديمقراطية» في عنوانها الفرعي تقول: «كلما ساد الخوف والعبودية، زاد الجور والتعسّف ليصبح سيّد الموقف».

بشأن التضخّم، كتبت نشرية حزب الثورة الاشتراكية في 20 نوفمبر 1977 تقول:

«شهدت المواد الغذائية الأساسية زيادات كبيرة في الأسعار. بحيث انتقل سعر الكيلوغرام الواحد من السكر من 1.80 دج إلى 2.70 دج والقهوة من 13.80 دج إلى 20.80 دج وبلغ لحم الخروف 40 دج.

«تأتي هذه الزيادات في مناخ متوتّر للغاية وفي وقت بلغت فيه الضجّة الإعلامية حول الصحراء الغربية ذروتها. إذ استخدم الحكم الفردي، وفاء منه لمنهجية تكتيكية بات بارعا فيها، سياسة التفرقة الخارجية لتمويه الصعوبات الداخلية. وقد وقعت قضية الرهائن الفرنسيين في الوقت المناسب لتستعمل غطاء لسلسلة الزيادات التي كانت مرتقبة منذ خطاب بومدين أمام إطارات الاتحاد العام للعمّال الجزائريين في 24 سبتمبر الأخير.

«في مواجهة مطالب العمال، يلجأ الحكم إلى التهديد والوعيد».

وتحت عنوان «امبريالية تسيء تمويه خضوعها للامبريالية الأمريكية، كتبت النشرة تقول:

«تحت ذريعة صرامة أكبر في التسيير، يتّجه الحكم إلى إلغاء دعم الدولة للأسعار تحت مسمّى «حقيقة الأسعار» الذي يعدّ في الواقع أحد شروط البنوك الدولية لمنح القروض. إنّ الاتفاقيات المبرمة مؤخّرا مع الولايات المتحدة والقروض الضخمة الممنوحة من قبل البنوك الأمريكية ترغم الحكم على «تطهير» وضعيته المالية.

لو قمت باقتباس بعض المقاطع من هذه النشرية، فلأنّ حزب الثورة الاشتراكية يبدو، على عكس جبهة التحرير الحالية، أنه لا يزال وفيا لحريات الإنسان. أعتقد جازما أنّ كلّ الآراء ستكون محلّ احترام عندما تحظى هذه الحريات بالحماية الضرورية لها. وما ليس كذلك هو الحكم الشمولي Le totalitarisme والممارسات القمعية والمخاوف التي تثيرها في أوساط الجماهير. بهذا الشأن، كتبت نشرية «الحرية والديمقراطية – Liberté et Démocratie» في شهر ديسمبر 1976 تقول:

«طوال أربع عشرة سنة من الحكم الشمولي، لم يسجّل النظام الدكتاتوري الذي فرض من الخارج في 1962، ثمّ أقيم فعليا من قبل «ثورة البلاط» في

شهر يونيو 1965، إلا الفشل تلو الآخر. وسواء تعلّق الأمر بالقطاعات الحيوية للمجتمع الجزائري وتنظيم الحزب والدولة والعدالة وإدارة الاقتصاد وبناء جيش وطني شعبي حقيقي، فقد سجّلت السياسة التي اعتمدها النظام إخفاقات تلو الإخفاقات».

«عندئذ، وجدت الجزائر نفسها وكأنها كانت تريد بذلك أن تتوّج مثل هذه الحوصلة في عزلة تامّة على الساحة الدولية، ولاسيما في العالم العربي والمغاربي. يضاف إلى ذلك تبعية بلادنا المتزايدة إزاء القوى الأجنبية على المستويات السياسية والاقتصادية (ولاسيما الغذائية) والعسكرية».

وفي الأخير، استعرضت هذه النشرية المزيد من الحجج في افتتاحية نوفمبر 1977.

«لم يبق أمام الدكتاتورية في مواجهة قدرها المحتوم، وهي تستشعر أركانها تهتزّ، إلا سلاح الدعاية والخداع والإثارة - المثلم مع ذلك. وبالفعل، فقد لجأ النظام منذ شهر سبتمبر، إلى استعمال مفرط لنوع من النقد الذاتي الذي كان يبدو على الأقلّ تبسيطيا وبلا أثر ملموس في واقع الحياة اليومية وطبيعة النظام.

«التمسّك فقط بالفروع والسكوت عن الأصول، أيّ عن مسؤوليات الحكم الفردي في السياسة الحالية التي ما زالت متواصلة منذ 1965، وعن تدهور نظام المجتمع والتسيير الكارثي للاقتصاد هي محاولة جديدة من محاولات المراوغة والاحتيال.

«تبع هذا النقد الذاتي التبسيطي، حتى لا نقول البليد، على خلفية أحداث خطيرة وقعت في بلاد المغرب والمشرق، صخب كبير وإثارة من أجل الإثارة. وأملا منه في الاستفادة من هذه الأحداث لتلميع صورته في الخارج التي شوهتها كثرة حماقاته وتصرّفاته الانتهازية وإقران مصيره داخل البلاد بمصير الشعب الجزائري، ما فتئ النظام يشنّ منذ شهر نوفمبر حملة تلو أخرى بهدف التضليل.

«يعتقد بذلك أنه يستطيع أن يقمع حركة الاستياء العام في صخب مظاهرات مفبركة مسبقا ومدبّرة من قبل إدارته الخاصة وأن يكبح مسيرة حركة الرأي من أجل الحرية والديمقراطية التي تنشّطها القوى الحيّة الصالحة في البلاد و التي ما فتئت شعبيتها تزداد اتساعا.

توزّع هاتان النشرتان الإخباريتان المستنسختان عن طريق صناديق البريد ويقوم بقراءتهما والبحث عنهما جمهور توّاق إلى حرية التعبير. إذ أدرك الشعب الجزائري الذي لا يزال يحمل آثار سنوات الحرب السبع واثنتي عشرة سنة من الحكم الفردي حجم نقائصه ومستوى انحطاطه وأخذ شيئا فشيئا يستيقظ من سباته العميق ليكتشف ثقل مسؤولياته.

سوف ينتهي به الأمر، عاجلا أم عاجلا، إلى سماع صوت ضميره.

*

شهدت الحضارة الحديثة في ما حققته من تطوّرات تقنية رائعة، خلال الحرب الكبرى الثانية تيارين فكريين كادا أن يأتيا عليها بالكامل: النازية الهتلرية والاشتراكية الستالينية. أحدثت هاتان الإيديولوجيتان صدمة قوية للغاية بحيث زعزعت العالم بأسره. فكيف لا يمكن لنا أن نتذكر الجملة الشهيرة التي قالها «بول فاليري»[1] وكتبها بعد حرب 1914 - 1918:

«نحن الحضارات أدركنا الآن أننا نموت مثلنا مثل البشر».

استمرار بقاء أوروبا يعود بالدرجة الأولى إلى تدخّل الولايات المتحدة. لكن المصيبة وقعت وأصيبت أوروبا وأفقرت ودفعت ضريبة ثقيلة من الثروات المادية وخسائر فادحة في الأرواح. وتأثرت بها جميع الطبقات الاجتماعية. الحرب لا تبالي بالوضع الاجتماعي للإنسان.

عند نهاية هذا النزاع، تمّ القضاء على العنصرية الهتلرية. وباستثناء جنوب أفريقيا، أدان العالم العنصرية. لكن الأمر لم يكن كذلك بالنسبة إلى الماركسية الستالينية التي خرجت من هذه الحرب أكثر قوّة إلى حدّ تقديم نفسها كنموذج لدى بعض الشعوب.

يا له من نموذج مسموم! لن أتحدث عن الإلحاد الذي تمجّده الديمقراطيات الشعبية والاتحاد السوفياتي وعن مطاردة الأديان في هذه الدوّل. لقد ولّى زمن الحروب بين الأديان. والملحدون أحرار في إلحادهم ونحن أحرار أيضا في إيماننا. هنا يتوقّف عداء بعضنا البعض.

1. بول فاليري (1871-1945)، Paul Valéry كاتب وشاعر وفيلسوف فرنسي.

بالمقابل، عندما تسلبنا الشيوعية المعروفة باسم «الاشتراكية الستالينية» حرياتنا الأساسية وعندما تسلّمنا لحسن نوايا الحكم الاستبدادي، فإنها تلحق بذلك أذى كبيرا بجوهر وجود الإنسان. وهكذا تفقده عقله وتحوّله إلى شبه آلة وتجرّده من الوعي بماهيته وبما يجب أن يكون. وبهذه الصفة، تعدّ الاشتراكية الستالينية أخطر آفة في هذا القرن. وأفتك مرض أصاب الجزائر المسلمة في العمق.

الأدهى من ذلك، هذا المرض لم يتوغّل إلينا خلف دبّابات قوّة أجنبية، كما في بولونيا على سبيل المثال. ولكن المسلمين الجزائريين هم الذين قاموا باستيراده لأنّ الإسلام، على حدّ قولهم، ليس تقدّميا !

قد يدعونا ذلك إلى البكاء إن لم نضطرّ للضحك. صحيح، الأديان التوحيدية - اليهودية والمسيحية والإسلام - لم تف بكلّ الوعود التي وعدت بها الإنسان. لكن هل ستفي الماركسية بوعودها؟ كلّ إيديولوجية تتعرض للتشويه بمجرّد ما تقع بين يدي الإنسان. الخطأ ليس خطأ هذه الإيديولوجية. وإنّما هو خطأ الإنسان.

هذا يعني أنه ليس علينا وضع الإسلام في قفص الاتهام، بل المسلمين أنفسهم.

*

الجزائر المسلمة تموت وتختنق وهي في قبضة تيارين فكريين.. تنزلق قهرا نحو الفوضى وسوء الإنتاج والرداءة.. أصبحت بلدا هجينا لا يشبه أي بلد من بلدان الجوار.

سياسيا، أضحت ملكا لفرد واحد.. مصدر كلّ السلطة. على كلّ إطارات الإدارة، مهما تكن مراتبهم، الطاعة له كلّ الطاعة. أمّا فيما يخصّ المواطنين؛ فإنهم يئنّون ويرثون حرياتهم وهم من كانوا مقاتلين أشاوس. عادوا إلى الذل والهوان كما عاد الحمار إلى بردعته.

الشعب الذي استطاع أن يقهر مظلّيي الجنرال «ماسو»، لم يعد إلا حشدا من الجماهير المذعورة. أصبحت آفاقنا أكثر ظلاما مما كانت عليه عندما كانت أوروبا تسيطر على العالم.

ممّ سيكون المستقبل؟ الامبريالية التي تهدّدنا هي أخطر من النظام الاستعماري. فهي تعتدي على تقاليدنا، على أسرنا، على أبنائنا، على إيماننا... الجزائر على نفس آثار ألبانيا.

من المعروف أن الرئيس «إنفر خوجا Enver Hodja كان يتباهى بتحويل المساجد إلى متاحف. وهو من رؤساء الدول الذين يقدّرون الرقيّ الاجتماعي بأطنان البطاطس التي يتمّ جنيها ومئات لترات الخمر التي يتمّ إنتاجها وأعداد الخنازير التي تتم تربيتها. حسب آخر الأخبار، إنه كان يريد أن يستبدل الأسماء الإسلامية بأسماء مسيحية.

لننتظر بم تأتي به الأيام. في المجموع، ليس هناك إلا ستين عاما منذ أن رأت الدولة الاشتراكية الشيوعية النور. فهل ستبلغ هذه الاشتراكية قرنها الرابع عشر مثل الإسلام أو قرنها العشرين مثل المسيحية أو قرنها الثالث والثلاثين مثل اليهودية؟ التاريخ هو الذي سيخبرنا. في الوقت الحالي، بمجرّد ما انتصب الصّرح، بدأت تظهر بعض التصدّعات هنا وهناك.

فوق كلّ ذلك، بقاؤها ليس مشكلتنا. الشيوعية ليست همّنا إلاّ لأنها تجد أتباعا لها عندنا. عندما ينصّب هؤلاء الأتباع أنفسهم بمثابة «ضمير» العالم الإسلامي، فمن الطبيعي أن يثير ذلك ردود أفعال دفاعية مشروعة.

لو بقي بن باديس على قيد الحياة في عصرنا هذا، لأوقفه النظام الاشتراكي. خلال مؤتمر جبهة التحرير الوطني، قام بن بلة، عام 1964 ، بوصف الشيخ الإبراهيمي، في ردّه على خطاب هذا الأخير بـ«العمامة البالية التي تجاوزها الزمن». مع أنّ البشير الإبراهيمي قد كان بحقّ مجد الإسلام وعزته في الجزائر.

فما هي الأحداث التي يرجع إليها بن بلة؟ بلا شكّ. إلى تلك التي أدّت به إلى حيث وجد نفسه. لا يمكن أن نخون حريات أيّ شعب دون أن نخون حرياتنا نحن. منذ اثنتي عشرة سنة وقع ضحية أمر استبدادي وزجّ به في غياهب السجن. في الجزائر، العصور الوسطى لم تنته. أمّا فيما يخص سجّانه، فقد وقع تحت «استعمار» البلدان الشرقية وأصبح، بلا خجل أو حياء، «الرفيق- كامراد - بومدين». تحت قيادته، اتّضحت معالم التخريب الماركسي وأصبح يهدّدنا في وجودنا. إن لم يهاجم الإسلام الجزائري مباشرة،

والإسلام المغاربي بشكل عام،فانه يدين ذلك على الخصوص للأجيال التي قاتلت الاستعمار باسم القيم الأخلاقية والروحية لهذا الإسلام. هذه الأجيال لم تنقرض بعد. بل ما زالت شاهدا مزعجا ويمكن لردود أفعالها أن تشكل خطرا على التخريب الشيوعي».

هذا معناه أن الجزائر قد انقسمت إلى قسمين منذ الاستقلال. من جهة البلد الحقيقي الذي يتكوّن من الأغلبية الساحقة المكمّمة، ومن جهة أخرى البلد الاصطناعي الذي أختزل في شرذمة من الوصوليين الذين يدّعون الإنتساب إلى ثورة 17 أكتوبر. ولكنّها هي التي تسيطر على الحكم بفضل الاحتيال والمراوغة.

بين البلدين، انطلقت المعركة وهاهي تحتدم بهدوء مثل النار تحت الهشيم. البلد الحقيقي يتمزّق. في النهاية، أدرك بأن كلّ مصائب الماضي قد لحقت به من الإذلال السابق للمسلمين وجهلهم. ولهذا أصبح يتطلّع، بعدما تحرّر من هيمنة أوروبا له، إلى ديمقراطية نظام الحكم وفتح أبواب العلوم أمام المسلمين.

من الواضح أنّه لا يمكن أن نتصوّر الديمقراطية ودراسة العلوم بلا حرية تعبير وحرية الرأي. حقوق الإنسان هي جناح الإنسانية. وبفضلها يأتي التغيير من أجل سعادة الإنسان.

هذه الشرذمة الثورية المزيّفة التي اغتصبت الحكم تناصب العداء لهذه الحريات ولا تقبل بها إلا لنفسها وتستعملها شرّ استعمال. وتعتقد أنها تستطيع إفساد شبابنا الذي لم يعرف لا النظام الاستعماري ولا إهانة العالم الإسلامي ولا حرب الجزائر ولا مصائبنا ولا آمالنا.

لا يملك هذا الشباب نفس الأسباب التي نملكها نحن لتمجيد الماضي والوفاء لإيمان أسلافنا ودماء شهدائنا.

إنه بلا منازع مثل لقمة سائغة. يمكن للسلطة أن تتلاعب به كما تشاء وأن تقنعه ببعض المغالطات. منذ ست عشر سنة، لم تحرم نفسها ذلك، بل فعلت أكثر... لم تحرم نفسها شيئا، بل أباحت لنفسها كل شيء منذ ست عشرة سنة كاملة. إذ سمعنا الكولونيل، زعيم جهاز الحزب، يستأثر لحسابه بموضوع

«الحريات الشكلية» و «الحريات الحقيقية»،الذي يأتينا من الاشتراكية الستالينية. في الواقع، ليس هناك سوى حرية واحدة، أي تلك التي تدعو إلى قول الحقيقة، كأن يقول المرء: «ميداس الملك ميداس، له أذنا حمار» دون الوقوع في غياهب السجن.

الله أعلم كم تضاعف عدد «الملوك» في الجزائر منذ الاستقلال !

هذا يصحّ على كلّ شيء. الجميع يتحدّث عن «البورجوازية» و«الرجعية» والامبريالية» بينما ليس هناك ما هو أسوأ من رجعية و امبريالية تصادر حرية الشعب برمّته. فهل يمكننا أن نتحدّث عن «نظام تقدّمي» عندما تعيش الأغلبية الساحقة من السكان في حالة خضوع دون إمكانية التعبير عن سخطها؟

تمّ خداع الشعب الجزائري. «أشباه ملوك» بلا أمجاد يديرون الرقص، يغتنون ويضعون أنفسهم فوق القانون. فهل سيقبل الشباب أن يوضع حبل المشنقة من حول عنقه؟ وهل سيقبل بقيود العبودية؟ لو انبطح شبابنا وهم في ريعان شبابهم بدلا من العيش رؤوسهم مرفوعة، فإنهم سيعدّون لأنفسهم مستقبلا مريرا. وسوف تحوّل جزائرهم إلى محتشد عسكري. لكن إذا بقي هذا الشباب على عكس ذلك وفيا لتضحيات شهدائنا والحرية، وإذا تسلح بتقاليدنا من أجل تخليدها وآمن بإيمان آبائنا، وإذا انكبّ على الدراسات الجادّة والأعمال العلمية التي تكوّن الإطارات والنخب، فإنّ شعبنا سوف يجدّد العهد بتاريخه ونمط حياته وسوف يستعيد فوق كلّ ذلك لذّة الحياة.

ذاك هو البديل الذي أصبحت الجزائر تواجهه الآن.

❊

الحكم الفردي ضارّ وخبيث. لا يمكن لرأي فرد واحد أن يحلّ محلّ آراء الجميع. المجرمون الذين قادوا الجزائر في 1963 إلى طريق الديكتاتورية الستالينية تحت ذريعة خدمة الشعب قد خانوا طموحات هذا الشعب المشروعة.

لا حكم في غياب الشعب.. دون الحكم ضدّه. لكن يتعيّن على شعبنا وعلى شبابنا تحديد المستقبل. الديكتاتوريات تزول والديكتاتوريون يموتون.

بهذا الشأن، كتب الكاتب الإنجليزي «جوهن دون»[1] يقول: « لا تسأل أبدا لمن يقرع الجرس. إنّه يقرع لك».

إن وجود إنسان مسلوب الحرية إنما هو انحطاط كبير، ونوع من الاحتضار. لا أحد يخالفني الرأي عندما أكتب بأنّ شعبنا قد أوذي بسبب «الاشتراكية الستالينية» أكثر مما أوذي من جرّاء حرب السنوات السبع. خلال الانتفاضة، كان يدرك لماذا كان يقاتل وكان يدرك رهان قتاله. واليوم ها هو يشاهد تدهور بلاده الاقتصادي والسياسي دون أن يفهم دواعي الحكم الفردي والحزب الشمولي والاشتراكية الفاسدة.

ذات يوم حطّ بي الرحال في حمّام «ريغا». تعرّف علي أحد الفلاحين، دنا مني وسألني قائلا: هل صحيح سيأتي الأتراك ليحرّرونا من الاشتراكية؟».

أصابتني الدهشة. هذه الحالة النفسية هي دلالة على شدّة القلق الذي أصاب الشعب الجريح الذي وقع في شرك الخوف والقيود والأباطيل. فلاحونا يشاهدون سراب الماضي يعود إليهم. ويجترّون مرارتهم ليتّخذوا من القرون الماضية ملجأ لهم.

في بعض المناطق، نسمع باستمرار ما تنبّأ به «االمرابطون» من وقت بعيد. إذ تنبّأ أحد هؤلاء الناسكين بمصائب حاضرنا علينا. ولا يزال أهل البادية إلى اليوم يرتّلون حكمته:

حسبنا المصائب والمآتم والأحزان !
ستطفح الأرض وحلا ومنه أوحال
سيأتي قادة لا ذمّة لهم ولا أوصال
منهم سيحلّ بها الخراب والأشجان

(بتصرّف)

يؤمن سكان شمال أفريقيا بطريقة المرابطين. ويقوم فلاحونا بنشر رواياتهم كعزاء لهم من المصائب التي تصيبهم.

بئس العزاء !

---

1. جوهن دون John Donn. ولد في لندن (1572 – 1631). هو شاعر إنجليزي أصبح، بعدما سمي كاهنا في 1615 ثم واعظا.

مع ذلك، من حقّنا أن نبحث، بفضل العلم، عن الوسائل التي تؤدّي إلى بناء مجتمع أفضل.

يجب أن يتواصل هذا البحث بلا انقطاع. لكن يجب مع ذلك مراعاة الحقائق والتجارب، ولاسيما طبائع البشر.

بهذا الشأن، ضلّ الحكم الفردي الشمولي سبيله. ومنذ 1962، لعب كلّ الأوراق. ورقة الإسلام دين الدولة. ورقة الثورة الزراعية، ورقة المنظمات الجماهيرية، ورقة التأميمات، ورقة الاغتصابات، الخ...

وفي النهاية، لعب ورقة حزب الطليعة الاشتراكية PAGS، موعد قدامى مناضلي الحزب الشيوعي الجزائري وغيرهم من الثائرين والناقمين على الوضع والمنبوذين. حزب طلائعي، لكن للذهاب إلى أين؟ نحو الحرية والسعادة أم نحو الجحيم الستاليني؟

في الحقيقة، الاحتيال الذي وقع الشعب الجزائري ضحية له سنة 1962 قد وصل إلى نهايته. ومع حزب الطليعة أو بدونه، كل ما تمّ تصوّره بدون الشعب سوف ينهار لا محالة. وسوف يأتي الوقت ويحاسب أولئك الذين سلبونا حرياتنا.

لن أكفّ عن تكرار هذا الكلام: الحزب الواحد لعنة. الحزب الواحد لا يفرز إلا وحوشا ضارية وبيروقراطية سمجة وأخطبوطية. أمّا الجماهير الشعبية، فإنها لا تجد شيئا إلا الأنين والبكاء. لقد شاهدت بأمّ عيني رجالا يبكون. وشاهدت نسوة وأطفالا يبكون أيضا. أليست دموع ضحايا التعسّف والاستبداد أبلغ صورة على عمق الأسى والحزن لدى هؤلاء الضحايا الأبرياء وهم يتضرّعون إلى المولى العلي القدير لشدّة ظلمهم؟

الحرية مفتاح أيّ توازن اجتماعي وأيّ رقيّ أو تقدّم. أي عندما يصبح لدينا قانون يعبّر حقا عن السيادة الوطنية سوف يتساوى عندئذ الجميع أمامه طوعا وليس كرها.

الثورة التي اندلعت في أوّل نوفمبر 1954 انحرفت عن مسارها الطبيعي. وما علينا إلا الرجوع إلى البيان الأوّل لمفجّري الثورة التاريخيين وإلى أشغال مؤتمر الصومام. هذا الانحراف مردّه أولئك الذين اعتلوا سدّة

الحكم منذ ست عشرة سنة استخفافا بإرادة الجميع. وسوف يزدادون تسلّطا وجبروتا إن لم نتحرّك.

﴿إنّ الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم﴾ (سورة الرعد- الآية 10). هذه الآية القرآنية تدعو إلى الحركة. فإذا كان الشعب الجزائري قد تراجع ممّا كان عليه خلال قرن الاستعمار وإبان حرب الجزائر، فلأنه استبدل الفعل بالثرثرة واللغو. واستسلم لإرادة السلطة وأصبح لعبة بين يديها وكأنّ الجماهير لم تكن هي نفسها معينا لطاقات المستقبل وحيويته.

التغيير مرهون بالجهد الفردي والجماعي على السواء. بلادنا تزخر بالإطارات الفذّة، رجالاً وشباباً، وهم على تمام الاستعداد لتسخير معارفهم وخبراتهم في خدمة المجتمع بأسره. ومن أجل ذلك، يكفي تحريرهم من المحاباة التي تغصّ بها دواليب الحكم ومن أولئك الذين صادروا الاستقلال لصالحهم.

يعتقد هؤلاء أنه لا أحد يستطيع أن يزيحهم. ويظنّون أنهم يبقون وزراء مدى الحياة. وبطبيعة الحال، أنهم لا يحسبون للطوارئ والعناية الإلهية أيّ حساب. لقد سبقهم آخرون وحسبوا نفس الحسابات وأخفقوا.

عندما كان هتلر يتهيّأ للسيطرة على العالم، وضع الأفارقة والآسيويين في المرتبة الدنيا على سلّم قيم الأجناس البشرية الذي أعدّه لنفسه. لم يكن عندئذ يراوده شكّ في أنه سيكون بطريقة غير مباشرة من «سيحرّر» شخصيا هذه الأجناس التي كان يحتقرها بالدرجة الأولى.

هناك حساب آخر لهتلر نفسه وقد آل إلى المصير نفسه بفضل العناية الإلهية. قسم بالقضاء على الجنس اليهودي ومحوه من الوجود. وبكل بشاعة، هلك الملايين من اليهود على يديه.. وأثارت العودة إلى البربرية الوحشية سخط العالم بأسره. ومن ثمّ، أدّت هذه الإبادة العرقية الوحشية إلى تأسيس دولة إسرائيل.

غالبا ما تصطدم حسابات البشر بالطوارئ مهما تكن عظمة هذه الحسابات. لنحترس إذن من الأناوية Egocentrisme الفردية والجماعية معا.

بالنسبة إلى بلد فتي مثل بلدنا، تتمثّل الإستراتيجية الأحسن في تجنّب الغشّ والتفكير في الآخرين كما نفكر في أنفسنا والوفاء بالعهد والقيام بما يجب القيام به. لا أقل ولا أكثر. وبكلمة واحدة، الاعتماد على النفس. ذلك هو الصواب بعينه.

لنعد إلى تاريخنا : الثورة الجزائرية كان يجب أن تؤدّي إلى تكريس الحريات العامة وصون كرامة الإنسان. وكان يجب أن تؤدي كذلك إلى بناء المغرب الكبير. هذه هي الأهداف التي كان يجب أن يبنى عليها كل ما تبقّى.

يعيش الجزائريون مع ذلك بلا حرية ولا كرامة. أما بالنسبة إلى المغرب الكبير الموحّد، فإنه يعيش حاليا أزمة عميقة. وهو ما يتطلب العمل على قلب الأشياء والعودة إلى الأصل: الكلمة للشعب. بهذا، سيتمكن الشعب وحده، بعد استشارته بكل حرية، أن يوجّه سياستنا إلى الطريق السليم وأن يعزّز التجديد وأن يبني السلم ومغرب الإخاء.

بكلّ مشروعية، يتطلّع الجزائريون إلى صنع الجديد في ظلّ الاستمرارية والوفاء. صلوات آبائنا لا تتغيّر لأنها ترتقي إلى ما وراء خلاص الروح الفردي. بل كانت رمزا من رموز الأخلاق العامّة والمجتمع المؤمن وطريقة حياة وحضارة جديرة بكل الاحترام.

لطالما تعالى في السماء النداء إلى صلاة واحدة من أعلى صوامعنا الجزائرية، لا أحد منا يحقّ له أن يخوض طريق المغامرة والديماغوجية. ولا أحد منا يستطيع أن يخلي المكان للخوف واليأس. لنثق إذن في المستقبل ولنتحرّك حتى لا نعيش أبدا دون حرية ودون خبز على الإطلاق. فإلى العمل.. ثمّ العمل وبالعمل فقط يؤمّن الإنسان مصيره.

انجلى ليل الاستعمار ومات. وماتت العصور الوسطى مع عنفها. وانتهت الحروب الدينية.

وغدا سيطلع النهار...

المـراجـع

1re éd. – الوقت المتبقي Daniel (Jean) . Le temps qui reste
.1974. Nouvelle éd. Gallimard. Paris. 1984

Doutintsev (Vladimir). L'homme qui ne vit pas
Julliard. . الإنسان الذي لا يعيش على الخبز فقط seulement de pain
.Paris. 1957

تاريخ الشعر Fauriel (Paul). Histoire de la poésie provençale
.B. Duprat. Pris . 1846البلدي

Grasset. .ذاكرة المستقبل Jobert (Michel). Mémoire d'avenir
.Paris. 1974

Juin (Alphonse). Histoire parallèle de la France en
Algérie 1830 – 1962. Librairie académique Perrin. Paris.
1963تاريخ فرنسا الموازي في الجزائر

Lapierre (Dominique) . Collins (Larry). Cette nuit la
.R. Lafffont. Paris. 1975 . هذه الليلة الحرية liberté

حضارة العرب Le Bon (Gustave). La civilisation des Arabes
.SFIED. Paris. 1984

Lorenz (Konrad) . Les huit péchés capitaux de notre
.Flammarion. Pari. 1973 .أهم الخطايا الثمانية لحضارتنا civilisation

(Benoist-Méchin (Jacques
مصطفى كمال أو.Mustapha Kemal ou la mort de l'empire-
.Club des éditeurs. Paris. 1959 . موت الإمبراطورية
Albin Michel. Paris. .الأقدار المنحطة .A destins rompus –
.1974

. الصين وظلالها Mende (Tibor). La Chine et son ombre
.Seuil. Paris. 1960

Poliakov (Léon). Bréviaire de la haine. Le III[e] Reich et
Calmann Lévy. . كتاب صلوات الكراهية . الرايخ الثالث واليهود les Juifs
.Paris. 1951

.Ringuet (Leprince). Sciences et bonheur des hommes
.Flammarion. Paris. 1977 . العلوم وسعادة البشر

مسيحي في . Riquet (R.P. Michel). Un chrétien face à Israël
.Laffont. Paris. 1975 . مواجهة إسرائيل

Scanned by CamScanner

الفهرس

كتب والدي العزيز المغفور له فرحات عبّاس هذا الكتاب - «غداً سيطلع النهار Demain se lèvera le jour» - وهو تحت الإقامة الجبرية، في عهد نظام هواري بومدين ونقّحه خلال السنوات الأخيرة من حياته. أعلن والدي كتابة هذا الكتاب منذ 1981 في الطبعة الجديدة لكتابه «الشاب الجزائري – Le Jeune Algérien». غير أنّ المرض قد حال دون نشره في الموعد المنشود. كان يلحّ، وهو يوكل إليّ مخطوط هذا الكتاب، بشكل خاصّ، على نشر هذا الكتاب عندما يتم تأسيس نظام ديمقراطي حقيقي في الجزائر وعندما تأخذ كلمة «الحرية» كل معانيها. وهو ما كان يمثّل في نظره أهمّ من كلّ شيء..بل كلّ شيء.[...]

حان الوقت إذن للوفاء بهذا الوعد. [...]

كان يريد أن يعبّر في هذا الكتاب عن رؤيته الخاصة لمستقبل بلاده بالنظر إلى التزامه الذي عقده على نفسه والخبرة التي اكتسبها طوال كفاحه السياسي الذي خاضه ضدّ كل مظاهر الظلم، وكذلك خلال الفترة الاستعمارية وخلال هيمنة الحكم الفردي بعد استقلال البلاد.

بالرغم من طعنه في السنّ، وشدّة مرضه، فقد كانت الأفكار التي بلورها على امتداد هذه الصفحات تشكّل في حدّ ذاتها الأدلّة القاطعة على صفاء تفكيره وجلاء بصيرته الثاقبة التي ما فتئت الأحداث المأساوية التي عصفت ببلادنا مباشرة بعد رحيله أن حكمت لصالحه. [...]

مقطع من تنبيه السيد عبد الحليم عباس، ابن فرحات عباس

Cover designed by : Hakim Mana (Free Kamce Styles) 0779 059 210

ISBN : 978-9947-897-31-7



صدر هذا الكتاب بدعم من وزارة الثقافة بمناسبة الذكرى الخمسين للاستقلال.

